



نَفَاءِ

شَابَ مُسْلِمٌ مُتَحَرِّرٌ

Dar An Nafaes

جَمِيعُ الْحَقُوقِ مَحْفُوظَةٌ



دار النعائس

للطباعة والنشر والتوزيع
شارع فرداں بنایا صفوی الدین
ص.ب ٦٣٤٧ او ١١/٥١٥٢
برقیاً: دانفایسکو-ت ٨١٠١٩٤
او ٨٦١٣٦٧ بیروت - لبنان

الطبعة الأولى : ١٤٠٥ - ١٩٨٥ م

الطبعة الثالثة : ١٤١١ - ١٩٩١ م

Dar An Nafaes

احمد راتب عربوش

فی سَبَیلِ

شَابُ مُسْلِمٌ مُتَحَرِّرٌ

دار النفائس

Dar An Nafaes

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

Dar An Nafaes

Dar An Nafaes

الفَصْلُ الْأُولُ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

Dar An Nafaes



Dar An Nafaes

مقدمة

التحرر ، أو على الأقل محاولة التحرر ، ميزة من ميزات الشباب ، بكل ما في الكلمة من معان . فلئن كانت مرحلة الطفولة مرحلة اعتماد على الأهل ومن هم في مقامهم ، إن الانتقال إلى مرحلة الشباب يرافقه الشعور بالاستغناء عن الآخرين والرغبة في التحرر من سلطتهم والثورة أحياناً على أفكارهم . والاستقلال بالرأي عن آرائهم .

وبيما أن المسؤولية تبدأ في هذا العمر ، فإن الإحساس بهذا الشعور ، مع دوافع المرحلة الذاتية ، تخلق لدى الشباب أملاً بالمستقبل ورغبة بالعمل لتحقيق هذا الأمل .

والشباب مثاليون بتفكيرهم ، لم تفسدهم تجارب الحياة وخيباتها ، مستعدون للتضحية بكل شيء لتحقيق ما يؤمنون به . صفات الشباب هذه يجعلهم هدف الأصدقاء والأعداء .

الأصدقاء يريدون الأخذ بأيديهم إلى الطريق الصحيح المنتج الذي يعتقدون فيه خيرهم ومصلحة بلادهم ، والأعداء يريدون تلقيفهم المبادئ الفاسدة وتشتيت أفكارهم بما يكفل تدمير الأمة ويحقق مطامع الأعداء .

فما هو واجب الشباب حيال هذا الواقع ؟ وهم كما ذكرنا في أول مراحل المسؤولية . هذا ما سنحاول الإجابة عنه في هذه الرسالة .

شغلو عقولكم

يمتاز الإنسان عن بقية المخلوقات بالعقل . وإعمال هذا العقل والاستفادة منه هو الذي يكفل عدم التردي في الأخطاء أو على الأقل تقليلها إلى أكبر حد ممكن .

في بلادنا جماعات وأحزاب ، منها القديم ومنها الحديث ، كلها بلا استثناء تبدأ باندفاع ثم تذوي مع الزمن حتى تنفرض مع أهدافها ومبادئها . وأكثرها استمراراً أكثرها انقساماً وتفككاً .

الأشخاص أنفسهم ينتقلون من حزب إلى حزب ومن جماعة إلى أخرى وكأنهم ينتقلون من نادٍ إلى آخر . وينبiron مبادئهم كما يغيرون ملابسهم . هم أنفسهم يقولون اليوم ما

ينقضون به أقوالهم السابقة . وهم على استعداد لأن يقولوا غداً
ما يخالف آراءهم السالفة كلها .

ولئن كان من المأثور أن يتطور فكر الانسان ، وأن تغير
نظرته إلى بعض الأمور و موقفه من بعض القضايا ، وبخاصة إذا
اكتشف خطأ ، فمن غير الطبيعي أن يكون التغيير كبيراً وكثيراً
بحيث يصبح اضطراباً ، فيتحول عمل اليوم إلى هدم ما بناه في
الماضي .

كذلك تندم التغيرات الفكرية العقائدية ، أقصد
المعتقدات الأساسية ، فيما لو أعمل الإنسان عقله و درس
بتعمق و حياد ما يعرض في سوق المعتقدات والأفكار قبل
اعتنقه أي معتقد أو التزامه بأي مبدأ .

إن المطلوب من الشباب ليس سهلاً لكنه ليس مستحيلاً .
صحيح أن وسائل الدعاية ازدادت قوة وتأثيراً وازدادت معها
إمكانية التضليل وتزييف الحقائق . مما سهل طرح أفكار كثيرة
متناقضة وبراقة ، لكن العقل يبقى قادراً على تمييز الصحيح من
الخطأ إن عرضت عليه الأمور بشكل حيادي .

ونحن سنحاول في هذا البحث أن نجول مع الشباب فيما
يشغل ضمير كل واحد منهم . وكي نستطيع أن نصل سوية إلى
نتيجة مرضية نطلب منهم ما يطالبون هم الآخرين به ، نطلب

منهم التحرر الفكري من كل الرواسب والمعتقدات أثناء المناقشة على الأقل . لنحاول أن نجعل داخلنا خالياً من أية فكرة مسبقة ، ونترع عنه التحيز لأي مبدأ أو معتقد ، وإلا كان بحثنا غير موضوعي ، وخضعونا لمنطق العواطف ، الذي يجد المبررات لكل تصرف أو معتقد مهما كان خاطئاً . وهذا يعني أيضاً أن لا تكون مسبقاً ضد أية فكرة مهما كان موضوعها . ذلك أن بعض الشباب بحكم الشعور بالاستقلال في فترة الانتقال من مرحلة الطفولة ، مرحلة الانقياد والطاعة للآخرين ، إلى مرحلة الاستقلال ، بحكم هذا الانتقال يرفضون ، بل يثورون على معتقدات الآخرين التي كانت بحكم المفروضة عليهم .

إن البحث عميق وجاف لكننا سنحاول أن نبتعد عن الفلسفة والمصطلحات ، وأن يكون حديثاً سهلاً خالياً من التكلف والتعقيد . وإذا اضطررنا إلى استعمال كلمات أو مصطلحات ذات مدلول معين فما ذلك إلا لأنها تطرق أسماعنا يومياً . ومع ذلك سنحاول أن نوضح المعنى المقصود من الكلمة أو المصطلح المستعمل عند استعماله ، لأن المفاهيم تختلف في كثير من الأحيان حيال هذه المصطلحات .

التقدمية والرجعية

المفروض بالتقدم : السير إلى الأمام والتطور نحو

الأفضل ، وبالرجوع : العودة إلى الماضي والسير إلى الوراء .
والإنسان يحب التغيير والتبدل والتجديد ، لذلك يكره الناس
الرجعية ويحبون التقدمية .

لكن الذي يسود بعض المجتمعات المتأخرة أنهم يعتبرون
كل تغيير تقدماً وكل محافظة رجعية . هذا الواقع يتطلب وقفة
بعيدة عن العاطفة والأنساق الأهوج وراء التقليد ، فلتعمق في
هذه الفكرة قليلاً .

هل كل تغيير هو سير إلى الأمام وتطور نحو الأفضل . أم
أن التغيير يمكن أن يكون إلى الأسوأ كما يمكن أن يكون إلى
الأفضل ؟ وهل جميع القيم والمبادئ والأفكار والمعتقدات
الحاضرة أو التي سادت في الماضي هي سيئة ؟ إن النظرة
المجردة والبحث المنطقي « اللاعاطفي » يؤدي إلى الإيمان بأن
المبادئ الماضية يمكن أن تكون جيدة ويمكن أن تكون سيئة ،
 تماماً كما يمكن أن تكون الحاضرة والمستقبلة . وهذا يقودنا إلى
رفض التغيير ما لم يعرض على العقل وهو يقرر الأفضل ، وبعد
تمييز الأفضل لا مانع من الرجوع إلى الجيد فيما ساد في
الماضي والمحافظة على الجيد منه في الحاضر والعمل على
اختيار الأفضل للمستقبل . ورفض السيئة في الماضي وفي
الحاضر وفي المستقبل . بعض النظر عن التسمية والرغبة في
التغيير لذاته .

أما سؤال من الذي يقرر الأفضل ؟ فجوابه : إنها العقول المؤهلة القادرة على المناقشة البعيدة عن الهوى والعواطف والتقليد ، ويتبع ذلك وجوب ملاحظة التجارب السابقة والحاضرة لدى الأمم الأخرى مع الأخذ بعين الاعتبار وضع كل أمة . لأن ما ينجح في إحدى الأمم قد يفشل في أخرى . لذلك يجب الاهتمام بشكل خاص في تاريخ كل إحدى الأمم لاستخلاص ما يمكن أن ينجح بها وما يمكن أن يفشل .

وهذا يقودنا إلى البحث في الأنظمة السائدة في العالم في عصرنا الحاضر لاستخراج ما قدمته هذه الأنظمة إلى البشرية ، واستخلاص الصالح منها واعتماده .

الديمقراطية

الديمقراطية كلمة جميلة محببة إلى النفوس . كيف لا ؟ والمفروض في الحكم الديمقراطي أن يكون حكم الشعب نفسه بنفسه ، و اختياره الحر لحكامه والمسرعين فيه ! . لذلك نرى جميع الحكام يدعون الوصال بالديمقراطية ، وجميع الأنظمة تطلق على نفسها هذا الشرف . كيف لا والمفروض بالديمقراطية أنها النظام القائم على مبدأ الحرية الفردية والمساواة السياسية بحيث يضمن الدستور الحريات الفردية السياسية والاقتصادية ويقوم الشعب باختيار ممثليه الذين يضعون

له التشريعات ويراقبون السلطة التنفيذية ويعينونها ويعزلونها كما هو معروف في تلك الأنظمة .

لقد تفألت الشعوب بالثورة الفرنسية التي حملت مشعل الحرية بعدما عانت البشرية خلال تاريخها الطويل من مآسٍ وويلات وظلم المستبددين الكثُر ، من أباطرة وملوك وإقطاعيين ورؤساء قبائل .. لكن ما الذي حصل فعلاً عندما طبقت هذه الديمقراطية وهل نقلت الشعوب التي طبقتها من الجحيم إلى النعيم . الواقع أنه كان لها صدى في بدايتها كما هو الأمر بالنسبة لكل نظام جديد ، فأحبها الناس ودرجت « موضتها » ، ولكن لم تمض سنوات حتى ظهر التذمر منها وبدأت مهاجمتها فتشعبت أنواعها وكثُرت تعديلاتها من برلمانية إلى شعبية إلى ... الخ ومن نظام اقتصادي حر إلى متعدل إلى موجه إلى اشتراكي إلى شيوعي إلى غير ذلك من ألفاظ قاموس المصطلحات السياسية .

لقد أدى النظام الاقتصادي الحر في ظل الحكومات البرلمانية إلى نشوء رؤوس أموال ضخمة تسيطر عليها فئة قليلة من أفراد المجتمع ، ورافق ذلك احتكار للإنتاج أدى بدوره إلى زيادة حجم الأموال في أيدي هذه الفئة القليلة . واحتاج هؤلاء الرأسماليون إلى تشريعات تضمن لهم مصالحهم فتدخلوا في انتخابات ممثلي الشعب . بالطريقة التي يستطيعون التدخل

بها ، وهي شراء الحكام والناخبين بالأموال الضخمة التي تحت تصرفهم . وهم ، إن كانوا لا يستطيعون شراء جميع الأصوات لمرشحיהם فإنهم يستطيعون بأموالهم السيطرة على وسائل الإعلام والدعاية ، وبالتالي تزيف الحقائق عن طريقها . ولا نعتقد أننا بحاجة إلى شرح طويل للإقناع بأن مرشحاً تحت تصرفه الملايين أقدر على النجاح في انتخابات حرة من مرشح لا يملك شيئاً ، خاصة في المجتمعات المختلفة .

لم يتورع الرأسماليون عن سلوك أبغض الطرق لشراء المجالس التمثيلية والسلطة التنفيذية ، كما لم يتورعوا عن استخدام أقذر الوسائل لاستعادة ما يصرفونه في الانتخابات ، مما ولد في المجتمع طبقة جديدة . طبقة الرأسماليين التي خلفت الإقطاعيين بسيئتهم كلها ، وطبقة العمال التي حاول الرأسماليون استغلالها إلا ما ندر . وعمل الاشتراكيون على تفجير التناقض بينها وبين بقية طبقات المجتمع بقصد السيطرة باسمها على السلطة والحكم وتوجيه الأمور .

وأظهر واقع الدول الديمقراطية لا أخلاقيتها ، فحتى الحرية المزيفة التي يدعونها هي لمواطني دولهم وحدهم ، بينما تنكر هذه الحقوق على المجموعات البشرية الأخرى . ظهر ذلك جلياً من طريقة ممارسة الاستعمار في الدول المستعمرة . لقد كانت الدولة المستعمرة ديمقراطية وشعوب الدول

المستعمرة تقتل بالألاف وتسلب خيراتها ولا ترى حكومات الشعوب المستعمرة ومعظم شعوبها غاضبة في ذلك ، مما ينفي عن الديمقراطية في هذه الحالة صفات الإنسانية كلها .

ولهذا كله أصل نابع من فطرة الإنسان وطبيعته . فالإنسان مهما كان متجرداً ينحاز إلى نفسه . وقد عرف الإنسان بنفسه هذه الخاصية فمنع في القوانين التي وضعها لتنظيم شؤونه أن يكون هو حكماً بين نفسه وبين غيره في أية قضية .

الاشتراكية

مذهب اقتصادي وسياسي مناقض للنظام الرأسمالي ، وهي قديمة الجذور لأنها في الأصل فكرة معاكسة للظلم الاجتماعي . وقد ظهرت النزعة الاشتراكية منذ أقدم العصور عند فلاسفة ومفكرين متعددين كأفلاطون والفارابي وغيرهما ، وهي بهذا المعنى موجودة ضمن الأديان السماوية كلها ، لكنها في القرن التاسع عشر ظهرت بشكل قوي وبأثواب مختلفة نتيجة للتطور الصناعي الهائل ونشوء الرأسمالية ، وما رافق ذلك من انقسام في المجتمع إلى عمال وأرباب عمل ، ونتيجة للحرية الفكرية التي رافقت النظام الديمقراطي . ومن بين النظريات الاشتراكية المختلفة والمتعارضة أحياناً ظهرت الاشتراكية العلمية التي نادى بها « كارل ماكس » والتي تقول باحتمالية الحل

الاشتراكية وتفجر الصراع الطبقي مما هو معروف .

هذه باختصار لمحة عن الاشتراكية ، وهي في واقعها الان وفي البلدان التي طبقتها اشتراكيات ، وهي أكثر لمعاناً و « تقدمية » من الديمقراطية مع أن المنادين بالديمقراطية أكثر عدداً ، فحتى الاشتراكيون يدعون أن اشتراكيتهم ديمقراطية ، ولا يريدون حرمان أنفسهم من شرف وصالها .

ولننظر الآن ماذا قدمت الاشتراكية من حلول لمشكلة « الظلم الاجتماعي » التي ولدها النظام الرأسمالي .

لقد ثار طبقة من المواطنين (في بعض البلاد) واستطاعوا بقوة السلاح ان يستلموا الحكم .. فقضوا على الطبقة الأخرى بأن قتلوا أعداداً كبيرة « وهذا ما يسمونه بالتصفية الجسدية » وصادروا الأموال والممتلكات وأعلنوا أنها أصبحت ملكاً للشعب - بغض النظر على الاعتداءات الفردية والسرقات وما شابه ذلك - ووضعت الدولة أيديها على وسائل الانتاج وأعلنت ملكيتها للأراضي ، وأنشأت المزارع الجماعية . ورفعت شعار « الحرية كل الحرية للشعب ولا حرية لأعداء الشعب » ، وبالتالي صنفت المواطنين في قسمين : الشعب ، وأعداء الشعب . طبعاً ليست كل البلاد التي تدعي الوصال بليلى على نفس المستوى ، إنما نحن نضرب مثلاً نموذجياً في مجرد بلد .

ماذا يعني هذا الكلام فعلياً . إنه يعني أن فئة تدعي تمثيل

الشعب تقول إنها ألغت الملكية ، وهي لا تملك شيئاً . والواقع أنها تتصرف في كل شيء بالقوة . تتصرف في رأس المال الشعب ومؤسساته وجميع مؤسسات الدولة من مدنية وعسكرية ، وبقوة السلاح . ونتيجة لتصرف هذه الفئة برأس المال وملكيتها للقوة فإنها فرضت السلطة التشريعية أيضاً . وباختصار إن كان الرأسماليون يشترون من المواطن صوته بالمال فالاشتراكيون يغتصبونه ، هكذا بكل بساطة وباسم المواطن نفسه ، تماماً كما يغري الثري فتاته فينال منها ، بينما يقوم المجرم باغتصابها ! . النتيجة واحدة ، بينما اختلف الأسلوب .

ذلك هو واقع الحال في الدول الديمقراطية النموذجية مع اختلافات سلبية ، وإيجابية ترتبط بالتقدم العلمي والحضاري لكل شعب من الشعوب ومفهومه الديني والأخلاقي للحكم . وهذا هو واقع الاشتراكي أو الشيوعي مع التفاوت أيضاً بطرق التطبيق حسب وضع كل شعب .

باختصار ، إن واقع معظم شعوب الأرض حالياً : فئة متسلطة مغتصبة لا تمثل سوى جزء بسيط من كل شعب ، وأغلبية مقهورة أو مخدوعة أو مستغلة حسب النظام المطبق ، وأخلاقية أولي الأمر .

ولئن كان الشيوعيون يقولون علينا بالحرية للشعب ، وبأنه

لا حرية لأعداء الشعب . وطبعاً دائماً أعداء الشعب أكثر من الشعب بضعف مضاعفة ، فالرأسماليون يلفون ويدورون ويxadعون في الأمر ، والحرية عندهم للرأسماليين وبعض أعيانهم . وقد تحسن الأحوال فتكون الحرية لقطاع كبير من المواطنين لكن قد نجد نصف شعب ديمقراطي محروم من حقوقه . مثل الزنوج في أميركا ، في وقت من الأوقات ، الذين لا ذنب لهم إلا لون بشرتهم الأسود .

لكن على مستوى التعامل بين الشعوب فالجميع يدورون حول فكرة شعب مستغل وشعب مستغل . فشعب الدولة المستعمرة يتمتع بالحرية أما شعب الدولة المستعمرة فلا يتحرك ضمير امرئ لإبادته بأكمله .

أن تتتجسس المخابرات الأمريكية على العالم كله فذلك من حقوقها ، وأن تكون وراء جميع انقلابات العالم تقريباً ، فذلك عمل في سبيل الحرية . أما أن يتتجسس الحزب الحاكم على الحزب المعارض فذلك جريمة أهم بكثير من محاولة إبادة الشعب الفلسطيني وإقامة دولة يهودية مغتصبة في الأراضي العربية . . أمثلة لها أول وليس لها آخر . كلها معروفة من قبل البشر أجمعين .

إذاً لماذا يكون ضمن الشعب الواحد ظالم ومظلوم وعلى مستوى البشرية شعوب ظالمة وشعوب مظلومة مقهورة ؟ لا شك

أنه سوء الأنظمة السائدة التي وضعها البشر أنفسهم لتسير العالم وحكمه . وإن وجد نظام جيد فسوء التفسير أو سوء التطبيق كفيل بإفساده .

طبعاً ليس الإنسان سيئاً سوءاً مطلقاً حتى تكون نتائج أنظمه التي وضعها للحياة على هذا الشكل من السوء والظلم ، بل في كل إنسان بذور خير وبذور شر ، ولكن طبيعة الإنسان «الأنانية» تجعله يميل إلى نفسه ويحكم منطق العواطف ربما دون إدراك كامل لموقفه وخطئه . ولذلك عند حصول خلاف بين شخصين يحكمون شخصاً ثالثاً حياديأً بينهما . وما ينطبق على الفرد ينطبق على الأمة والشعب .

إن ضمير الشعب ، بغض النظر عن التعريفات المدرسية هو في الواقع الجانب المصلحي في ضمائر الفئة الحاكمة في ذلك الشعب . لذلك نرى أن الدول القوية تسيطر على الدول الضعيفة ، والشعوب القوية تستغل الشعوب الضعيفة ، وحافظاً على مصالحها قد تدخل الحروب وتغذى الثورات وقتل المئات . والاستعمار أحدث مثال ما زال شبحه ماثلاً أمام الشعوب النامية .

لقد وجدت فكرة الاستعمار أصلاً لإعمار البلدان المتأخرة . وعندما وضعت الدول المتقدمة أيديها على بلاد

وشعوب الدول النامية فرضاً للظلم وعممت الجهل وامتصت دماء الشعوب المستعمرة كالعلق النهم . وكان قتل مئات المواطنين الوطنيين في بلد خاضع للاستعمار لا يساوي الاعتداء على حرية موسم في البلد المستعمر . أما صيغات بعض الأفراد فمن قد يستيقظ ضميرهم في الشعب المعتمدي فغالباً ما تذهب أدراج الرياح .

حيادي من الغيب

ما هو الحل إذن ؟ الحل هو في إيجاد « حيادي » يحكم بين الأفراد وبين الأمم . وقد أدركت الشعوب هذه الحقيقة فحاولت أن توجد المنظمات العالمية لتكون حيادية تحكم بين الشعوب . أما الذي حصل فعلاً فهو أن جميع تلك المنظمات ، التي انقرضت ، والتي ما زالت ، كهيئة الأمم ، ومجلس الأمن ، ومحكمة العدل الدولية ، كلها ألعوبة بأيدي الدول الأقوى تخضع لسلطانها وتسير في ركابها .

وهكذا فشلت تجربة « الحيادي » التي أرادت البشرية إيجاده ، ومن المنطقي أن تفشل لأنها تخضع لقوانين البشر . والبشر كما ذكرنا ينحازون إلى أنفسهم بطبيعتهم ويعملون لمصالحهم ، ولو على حساب الآخرين .

إذن يجب التفتيش عن حيادي خارج حدود البشر . أين

نجده ، ومن هو؟ « هو الله ». نعم الله الذي يجب أن نعتقد بوجوده ، ولو لم يكن موجوداً ، لأننا بحاجة إليه فكيف إن كان موجوداً وهو خالق الوجود ، وهو يريد الخير لخلقه وعياله .

إن الله هو الذي بدأ الإنسان يفتش عنه من يوم وجد على وجه البساطة . وشعر بحاجته إليه . ولكن بعض البشر اهتدى إليه وبعضهم كفر به رغم حاجتهم إليه ، لأنهم لم يستطعوا أن يلمسوه أو يروه أو يدركوه ، فأين الله وكيف نستطيع أن ندركه ونقتنع بوجوده .

الحقيقة أن معظم الناس وفي كل الأزمنة يؤمّنون بوجود إله ، أو عدة آلهة ، ويسعون بحاجتهم إليه وبضرورة وجوده . ولئن سادت فكرة تعدد الآلهة عند بعض الشعوب فإن فكرة الإله الواحد ظهرت عند شعوب أخرى منذ أقدم الأزمنة . أما في العصور المتأخرة فقد تكرس الإيمان بإله واحد أو بإنكار كامل لفكرة الإله التي استعيض عنها بالطبيعة . ويرى أنصار الطبيعة أن الكون وجد مصادفة . أما الذين يؤمّنون بإله واحد فمنهم من أخذ إيمانه بالوراثة عن أهله ومنهم من مر بفترة تجربة فآمن عن تفكير ثم افتئاع .

لكنهم جميعاً يشترون بشيء واحد هو التفكير ، ولو لمرة في العمر ، بهذا الكون وبموجده . ولعل أكثر الناس إلحاداً أكثرهم شكّاً في « عقيدة إلحادهم ». فهم يدورون كثيراً حول

فكرة الإله ، ولسبب ما ، إما لا يقتنون فعلاً بوجوده ، أو يتظاهرون بذلك ويعا هرون به ، تعويضاً عن نقص ، أو إظهاراً لأنفسهم وتباه بمخالفتهم .

ومنذ أقدم العصور حتى العصر الحاضر وال فلاسفة والعلماء يحاولون إثبات وجود الله كل على طريقته .

الطريق الى الله

في أول هذا البحث وعدنا بالابتعاد عن التفلسف والتعقيد . نريد أن نطرح فكرة وجود الله بطريقة يقتنع بها كل إنسان ، مهما كان مستوى العقلي والثقافي . ندعو الإنسان إلى النظر في نفسه وعقله ، وإلى جسده وروحه . ثم لينظر إلى هذا الكون ، إلى الأرض بجبالها وأنهارها وسهولها ، ثم إلى الكواكب ، ما عرف منها وما لم يعرف ، وليتبين النظام الذي تسير عليه هذه « الكائنات » .

إن المياه تنزل من السماء أمطاراً فتسلك مسارب في الأرض ثم تتفجر عيوناً ، أو تسيل إلى البحار والبحيرات ، فتضربها أشعة الشمس ، فتحولها إلى بخار ماء يتضاعد في الفضاء ليشكل غيوماً ، تسيرها الرياح إلى حيث ظروف هوائية باردة ملائمة فتشكل قطرات ، وتعود إلى الأرض لتعيد الكرا .

والنجوم في السماء تبعد عن الأرض وعن بعضها بمسافات لا تستطيع الأرقام أن تحدها فيحسبونها بالسنة الضئلية ، أي ما يقطعه الضوء في سنة . فكم هو كبير هذا الكون عظيم ؟ وكله يخضع إلى نظام واحد . ولو أن أحد الكواكب غير مكانه في مجموعته بعض الأمتار فقط لاختل الكون كله واصطدمت الكواكب بعضها بعض وخررت الدنيا ..

الإنسان نفسه أجهزة مختلفة ، قد يكون جهاز الهضم أقلها تعقيداً ، ومع ذلك فهو معمل متنقل تزوده بمختلف أنواع الأطعمة فيحولها كلها إلى سائل واحد تتصه شعيرات معينة حيث يتحول إلى دم .

والدم هذا السائل الذي يغذي الجسم كله رغم جميع التقدم العلمي لم يستطع العلماء أن يتبيّنا تركيبه . وكما هو معروف يختلف بين شخص وآخر ، فلكل إنسان زمرة معينة وإذا حقنته بدم من زمرة أخرى قضيت عليه . فما بالك بجهاز البصر الذي يصعب وصفه لما فيه من إبداع ، ناهيك عن الجهاز العصبي العجيب . إن الدماغ يزن حوالي ١،٥ كغ يزيد قليلاً أو ينقص قليلاً وهو يقوم بكل الأعمال المعروفة . لتصور لو أمكننا صنع (كومبيوتر) يقوم بأعمال العقل هل ذلك ممكناً ؟ ثم لو أمكن ذلك كم سيكون حجمه وكيف سيكون شكله ؟ كم هو الفارق بعيد بين عقل الإنسان وكمبيوتر الإنسان .

وال الموجودات كلها تخضع لنظام واحد ، حتى النبات والحيوان والإنسان يخضعون لنظام واحد في التوالي والتکاثر .
كيف وُجد كل هذا ؟ هل يمكن أن يكون مصادفة .

بعض العلماء يقولون : لو أخذنا كمية من الأحرف ونشرناها على الأرض فيمكن أن يشكل حرفان أو أكثر منها كلمة ذات معنى مصادفة ، أما أن نلقي هذه الأحرف فتأتي بالمصادفة مصفوفة قصيدة من قافية معينة وزن معين . فهذا مستحيل ، ولا يمكن أن يصدقه عقل ومع ذلك أعتقد ، ويعتقد معي كل عاقل ، أن تركيب الكون كله بهذا الشكل مصادفة أكثر تعقيداً واستحالة من مثال القصيدة بـ ملايين المرات .

أن يأتي الإنسان بالتطور ذكرأ وأتشى مصادفة ، فهذا أمر لا يقبله عقل سليم . إن أقل تفكير يوصلنا إلى أن الإنسان خلق ذكرأ وأتشى لسبب ، لغاية ، لعنة هي الاتصال والإنجاب لحفظ النسل ، وهذا هو الواقع في المخلوقات الحية كلها . كلها تخضع لنظام معين يؤدي إلى التکاثر والإنجاب .

كل هذا ونحن ما نزال في الحديث عن المحسوسات ، فما بالك بالروح التي لا تلمسها ، بل تلمس أثراها في الجسم بالحياة ، ونفقده بالموت ، فلا نجد لها أثراً ولا نعرف عنها شيئاً .

إن جميع الكائنات هي موجودات بالفعل ، بعضها نلمسه وندركه ونستفيد منه وبعضها ما زال « قيد الدراسة » أو مجهولاً من قبلنا ، لكن العقلاء لا يختلفون في وجودها ، كما لا يختلفون في وجود أنفسهم .

هذه الموجودات تطرح سؤالاً ، قد يكون أول ما يخطر في عقل الإنسان الصغير ، من أوجدها ؟ كيف أتت ؟ وإلى أين تنتهي ؟ .. والجواب :

إما أن تكون وجدت من تلقاء نفسها بالمصادفة^(١) .

وإما أن يكون لها موجد أوجدها .

فاما أن يكون الكون وجد من تلقاء نفسه وبدون غاية (هذا إذا اعتقدنا بإمكانية ذلك) فهذا يستدعي أن يبقى الكائن نفسه ، أي أن يستمر في الوجود . وأن يكون موجوداً منذ الأزل . وهذا ما يدحضه العلم . فالعلم يقول بأن الكون له بداية ، ويقدرون عمر العالم بالbillions على اختلاف كبير في عدد هذه السنين . ويقرر العلماء أيضاً بأن الكون يفقد حرارته مما سيؤدي حتماً إلى نهايته . فهل يمكن أن يوجد كل هذا عبثاً ويدهب ويندثر مصادفة ! ؟

(١) بعض الناس يعتقد بأن الكون أوجد نفسه بنفسه ، وهذا مرفوض عقلاً ، وإن استطاع قياساً على ذلك كل موجود أن يوجد نفسه .. !

طالما أن الكون له بداية وله نهاية ولا يستطيع أن يتحكم بنفسه تماماً كما لا يستطيع الإنسان أن يتحكم بحياته . وطالما أن الكون بمجمله ليس له عقل ، ومع ذلك فهو يسير وفق نظام معين ، ولغاية محددة . وبما أن نظام الكون من أعقد الأنظمة وأدقها . وكلما دق النظام بعده احتمال المصادفة . فماذا يمكننا أن نقول نحن عن « وجود » هذا الكون ؟ أعتقد أنه ليس أمامنا إلا الإيمان بأن الكون « مخلوق » له خالق أو صانع أو مبدع . لا THEM التسميات كلها تؤدي إلى شيء واحد . هذا ما نجد أنفسنا مجبرين على الاعتقاد به .

وهنا نعود إلى سؤال تقليدي : إذا كان لهذا الكون خالق فمن خلق الخالق . إنه سؤال الطفل نفسه : من خلق الله ؟ إن فكر الطفل لا يستطيع أن يتصور وجود شيء بدون موجد . إنه سؤال منطقي . ولئن كان عقل الطفل لا يستطيع أن يتصور خالقاً بدون خالق فإن العقل المدرك يستطيع ذلك بسهولة . فنحن لا نرى الله ولا نلمسه ، لكننا نرى آثاره ونتلمسها . نراها ، في الكون وفي أنفسنا . والسؤال الآن : هل نؤمن بشيء لا نراه ولا نلمسه ؟ والجواب : نعم يجب أن نؤمن به ، ويجب أن يكون على هذه الحالة ، وأن تكون العلاقة بيننا وبينه كما هي ! أما لماذا يجب أن يكون الوضع هكذا ؟

قبل الإجابة على هذا السؤال ، وكيف نصل إلى الحقيقة

لا بد من التأكيد مرة أخرى على التحرر الفكري ، ولذلك يجب أن لا نجد غضاضة في طرح هذه الأسئلة . لنبعد عن الأسئلة السخيفة فقط مثل : لماذا خلق الله الكون على هذه الشاكلة ؟ لأن ذلك شأنه وليس شغلنا . الكون موجود بهذا الشكل ونحن على هذه الشاكلة ، فكيف يمكن أن يكون الإله ؟ هناك حالة (مثلاً) أن يكون على شاكلتنا يجلس معنا ، نشرب الشاي ونتجاذب أطراف الحديث . هل يكون إله كهذا إلهًا ! ؟ لا أعتقد أن ذلك منطقي أو أن أحدًا من يؤمن بالله كهذا .. صنع بعض قدماء العرب إلهًا من تمر ، ولما جاعوا أكلوه ! ونحوت بعضهم آلهة من حجر ، فباتت عليها التعالب ، فكفروا بها .

ويمكن أن يظهر الإله في السماء يومياً على شكل ما ، يعلن عن نفسه : أنا الله ومن يفعل كذا ينال كذا ومن لا يفعل كذا يصيبه كذا . فهل هذه صورة أفضل ؟ وهل يمكن أن تكون الحياة على هذا المنوال بإله ، يعلن عن نفسه يومياً ، ويتدخل في كل شيء ؟ ولنا أن نتسائل إن لم يكن الإله في واقعه الغيبي فكيف يمكن أن نتصوره في وضع غير هذا الوضع .

إن المنطق يقضي بأن يوجد فارق بين الصانع والمصنوع ، بين الخالق والمحظوظ . وأن يدرك الخالق ويلم بجميع دقائق المخلوق وغاياته وإمكانياته والغاية من خلقه ، وأن لا يدرك المخلوق كنه الخالق وإلا لبطل أن يكون خالقاً . إن معرفتي

بتكونين خالقي تساوى بيني وبينه فيما يجب عقلاً أن لا نتساوى به كخالق ومخلوق . هل تدرك السيارة او الكمبيوتر شيئاً عن المخترع أو الصانع ، هل تدرك المصنوعات الغاية من صناعتها ؟ أعتقد أن المناقشة العقلانية والتفكير الحيادي لا شك يوصلنا إلى أن الخالق يجب أن يكون موجوداً وأن كوننا مخلوقات يجعلنا لا ندرك كنه الخالق ، إنما نلمس آثاره فقط .

ولا شك أيضاً أن فكرة وجود خالق أكثر إراحة للنفس من فكرة إنكاره . فإذا لم يقنع الإنسان بوجود الله هل يستطيع أن يقنع بعدم وجوده . وهل الإيمان بعدم وجود خالق مقبول عقلاً أكثر من الإيمان بوجوده .

هذا السؤال نطرحه على الذين ما زالوا لم يقنعوا معنا بوجود الله أو ما زال لديهم شك في ذلك .

الله واحد ؟

بعدما اقتنعنا بوجوب وجود خالق تلمس آثاره ولا يُدرك كنهه قد يتبادر إلى ذهن بعضنا سؤال : هل الله واحد أم يمكن أن يوجد عدة آلهة ؟

ذكرنا فيما سبق أن الكون يخضع إلى نظام واحد ؛ ولو تعددت الآلهة لاختللت أنظمتهم التي وضعوها للكون . كذلك

فإن وجود عدة آلهة يفرض اختلاف أنظمة الكون كما يؤدي إلى اختلاف الآلهة فيما بينها ، وهذا ما لا يلمس أثره في هذا الكون .

ثم إن الخالق ذَكَرَ بواسطة أنبيائه أنه واحد ، وطالما أننا آمنا به إلهًا خالقاً فالمفروض أن نصدقه فيما يقول على لسان أنبيائه ورسله ، إذا اقتنعنا بوجود الأنبياء . وهذا ما يقودنا إلى البحث في فكرة النبوة .

Dar An Nafaes

Dar An Nafaes

النَّفَاسَةُ

الفَصْلُ الثَّانِي



Dar An Nafaes

من البديهي أن لا يترك الخالق مخلوقاته العاقلة والتي منحت حدوداً من المسؤولية ودائرة أعمال تصرف فيها بإرادتها ، أن لا يتركها ضالة دون أن يرشدها إلى نظم تسير عليها في حياتها . وحتى يتم التبليغ لا بد من واسطة ، فما هي الواسطة المعقوله ؟ قد يتبدّل إلى الذهن فكرة ظهور الله لخلقه ، وهذا مردود لأن ظهور الله للبشر بصورة غير مألوفة ترهب الذين يرونـه ، وقد تؤدي إلى إيمانـهم بما رأوا ، ولكن لا يفترض فيها أن تؤدي إلى إيمانـ الذين لم يروـه . وهذا يستدعي الظهور المستمر ، لأن البشر يولدون يومياً وباستمرار ، وفي جميع أرجاء الدنيا ، فهل هذا معقول ؟ وأما ظهورـه بصورة البشر فإنه يفقدـه صفةـ الألوهـية ، لأنـه أصبحـ بشـراً .

كذلك يمكنـ أن يرسلـ مخلوقـاً من مخلوقـاته مختلفـاً عنـ البشرـ كـملكـ مثـلاً. ولكنـ بماـ أنـ المفروضـ فيـ المرـسلـ أنـ يكونـ قـدوـةـ بـيـنـ البـشـرـ فـيـ تـصـرـفـاتـهـ وـأـعـمـالـهـ ، فـإـنـ بـقـيـ علىـ صـورـتـهـ الـلـابـشـرـيـةـ اـحـتـجـ النـاسـ بـأـنـ الرـسـوـلـ مـنـ طـيـنـةـ أـخـرىـ ،

وبالتالي يصعب التقييد به وإن جاء على صفة البشر فما الذي يمكن أن يكون بشراً .

إن المنطق يفترض أن يكون المرسل ، أو الرسول ، بشراً عادياً يبلغ هو ما يريد الله بطريق الوحي ، وهو يبلغ أوامر ربه ورب الناس للناس ، ويعيش معهم كما يعيشون ، ويكون قدوة لهم في حياته وتصرفاته .

نستخلص من كل ما ذكرنا ، أنه يجب أن يكون لهذا الكون خالق ، وأنه واحد ، وأنه يبلغ أوامر ونواهيه إلى مخلوقاته بواسطة أحدهم الذي يسمى «نبي» .

ومقام النبي هذا مغزى لدرجة قد تدفع بعض البشر من محبي الرعامة ، أو أصحاب الأفكار الخاصة ، بادعاء النبوة ، ليتبؤا الأوائل مراكز القيادة ، وليرفض الآخرون أفكارهم على الناس . ويكثر أدعية النبوة عند ظهور نبي من الأنبياء ، ونجاحه في دعوته ، بداع من الغيرة والحسد . لهذا كثراً مدعوا النبوة في الفترة التي بعث فيها محمد بن عبد الله نبي الإسلام . فهو من الأنبياء الذين عانوا الكثير من قومهم وصدتهم له وكفرهم بدعوته . ولكنه حق انتصاراً كبيراً في حياته ، وعندما اكتملت دعوته قال للناس مبلغًا عن ربه عز وجل ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَّتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينَنَا﴾^(١) .

(١) سورة المائدة ، الآية : ٣ .

وما زال أتباعه يزيدون ودعوته تنتشر منذ بدئه بالدعوة وحتى يومنا هذا .

نبوة محمد

نأخذ محمداً ﷺ مثلاً للدراسة لأنه لم يأت بمعجزة على طريقة الأنبياء السابقين ، ولأن معجزته ما زالت مائلة أمامنا نستطيع أن نراها وتلمسها وندرسها . بينما لا نستطيع أن نرى معجزات الأنبياء الآخرين .

كذلك لقرب عهده من زمننا بحيث نستطيع بالبحث التاريخي العلمي التأكد من صحة كثير من الأخبار والواقع التي حدثت في زمانه .

إن محمد بن عبد الله يقول :

- إن القرآن كلام الله أوحاه إليه .

- وإنه رسول الله إلى البشر كافة .

وما نحاول أن نبينه هنا هو هل كان محمد صادقاً فيما يقول ؟

لننظر أولاً في معجزته ، أي القرآن الكريم ، فهل هي معجزة حقاً ؟ فإن كانت كذلك ، فلم لا نلمس لها أثراً كبيراً في

عقول المسلمين وغير المسلمين في العصر الحاضر ، طالما هي في متناول أيدي الناس جمِيعاً ! ثم تتحدث عن مؤيدات رسالة النبي محمد ﷺ .

١ - إن أبناء هذا العصر من الناطقين بالعربية لا يصلحون من الوجهة الأدبية لاستيعاب حقيقة المعجزة من هذه الناحية . فهم قد فقدوا الملكة الأدبية التي كانت لأبناء الجاهلية . أما قريش ، وعرب زمان الرسول فقد بهرتهم المعجزة وحاروا في أمرها . حتى أن زعماءهم اجتمعوا مرة يتدارسون هذه الظاهرة ، التي تؤثر في الناس ، فتشدهم إلى عقيدة الإسلام ، وشعر كل منهم بهذا الانجداب نحوها ، فكل منهم كان يسترق الاستماع إلى القرآن ، وينجذب إليه ، ويدرك أنه ليس من وضع محمد ، وهم يعرفون محمداً ويعرفون إمكاناته العلمية واللغوية . لكن الذي كان يمنعهم من الإيمان برسالته رغبتهم في المحافظة على أوضاعهم الاقتصادية وميزانهم الاجتماعي وتقاليدهم الموروثة .

لقد كانوا راغبين في تكذيب الرسول ، ولكنهم يريدون أن يكون في تكذيبهم له ، وحربهم النفسية ضده ، شيء معقول يستطيعون مواجهة الناس به ليصدقوه .

وقد لخص وضعهم أحد زعمائهم في اجتماع لهم فقال
الوليد بن المغيرة :

« والله لقد سمعت كلاماً ما هو من كلام الأنس ، ولا من

كلام الجن ، وإن له لحلوة ، وإن عليه لطلاوة . وإن أسفله لثمر ، وأعلاه لمعدق ، فإنه يعلو ولا يعلى عليه . وإن أقرب القول فيه لأن تقولوا : ساحر جاء يفرق بين المرء وأبيه » .

القرآن الذي يجعل رجلاً مثل عمر بن الخطاب يُسلم لدى سماعه بعض آيات منه ، بعدما كان يسعى لتأديب أخته وزوجها عندما علم بإسلامهما . هذا القرآن كان معجزة بالنسبة لعمر ، ولم يعد معجزة أدبية لنا نحن ، لا لفقدانه رونقه الأدبي ولكن لقد دللتنا نحن الذوق الأدبي واللغوي الذي امتاز به عرب ذلك الزمان ، زمان نزول القرآن .

٢ - وطالما أننا بدأنا الكلام بالحديث عن الإعجاز اللغوي والأدبي . فإن مما يؤكد أن القرآن ليس من وضع محمد ، الاختلاف الكبير بين أسلوب القرآن وأسلوب الحديث . فمهما حاول المرء التصنّع فإنه لا يستطيع أن يكتب بأسلوبين ، ويتحدث بطريقتين ، وليس لمرة أو مرتين ، بل على مدى ثلاثة وعشرين عاماً .

٣ - ولم يقتصر الأمر على الإعجاز البلاغي بل عمد القرآن إلى تحدي جميع معاصرى نزوله من إنس وجن أن يأتوا بمثله ، أو بعشر سور من مثله ، أو بواحدة ، فوقفوا عاجزين تجاه التحدي المتركر . قال تعالى :

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ، قُلْ فَأَتَوْا بِعَشْرِ سُورٍ مِّثْلَهُ مُفْتَرِيَاتٍ

وادعوا من استطعتم من دون الله إن كتم صادقين . فان لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله وأن لا إله إلا هو فهل أنت مسلمون ﴿١﴾ .

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ، قُلْ فَأَتُوا بِسُورَةً مِثْلَهِ وَادْعُوا مِنْ أَسْطُطْعَتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿٢﴾ .

﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأَتُوا بِسُورَةً مِمَّا وَادْعُوا شَهَادَاتِكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحَجَارَةُ أَعْدَتْ لِلْكَافِرِ﴾ ﴿٣﴾ .

٤ - لكننا إن فقدنا في هذا الزمن المقدرة على تبيان وجه الإعجاز في القرآن من الناحية الأدبية . فاننا لم نفقد المقدرة على المحاكمة العقلية للتوصيل إلى كونه منزل من عند الله .

ففي القرآن إشارات إلى تشبيهات وعلوم لم تكن معروفة في زمان نزوله . مثل قوله :

﴿مَثَلُ نُورٍ كَمَشْكَاهٍ فِيهَا مَصْبَاحٌ ، الْمَصْبَاحُ فِي زَجَاجَةٍ ، الزَّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ درِيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مَبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ﴾

(١) سورة يومن ، الآية : ٣٨ .

(٢) سورة هود ، الآيات : ١٣ - ١٤ .

(٣) سورة البقرة ، الآية : ٢٣ .

ولا غريبة ، يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار ، نور على نور ،
يهدي الله لنوره من يشاء ، ويضرب الله الأمثال للناس ، والله
بكل شيء علیم ^(١) .

فبأي شيء يشبه القرآن الكريم نور الله ، من الأشياء
المألوفة أو المعروفة في ذلك الزمان ؟ كذلك في قوله : « بلى
قادرين على أن نُسوِّي بناته ^(٢) ». معجزة لا يدركها من لا يعرف
دقة البناء وأهميته وهو ما كان يجهله أهل الجاهلية .

وهذا ما دعى رجلاً كابن عباس إلى القول : « إن في
القرآن آيات يفسرها الزمان » .

ليس القرآن كتاباً علمياً ، ولكن تشبيهاته التي تتناول بيئة
لا يعرفها محمد ، وحديثه عن تاريخ لم يسمع به ، وإصرارة
على البشر أن يعملوا عقولهم ، ويستثمروا الأرض ويعمروها ،
كل ذلك يدل على أنه من عند الله .

٥ - إن الصحابة من أمثال أبي بكر وعمر وغيرهما ، الذين
آمنوا بمحمد واتبعوه كانوا على مستوى عقلي رفيع ، يدل عليه

(١) سورة النور ، الآية : ٣٥ .

(٢) سورة القيامة ، الآية ٤ . والبنان : رؤوس الاصابع ، (ال بصمات) .

كيفية تسييرهم لشؤون الدولة بعد وفاة نبيهم محمد وقادتهم .
فلو لم يكن محمد نبياً مرسلاً، ولو لم يكن الوحي «ظاهره» حقيقة
فريدة . لما استطاع محمد أن يقنع هؤلاء الصحابة ببنوته ، فهم
كانوا يشاهدون حالته الجسدية عند نزول الوحي ، وكيف أنه بعد
ذهاب الوحي يتلو عليهم ما أنزل عليه وكأنه آلة تسجيل ، لا يغير
ولا يبدل ولا ينسى . ولو أنه كان يتصنّع ذلك لاكتشفوه
وفضحوه أو نافسوا مركزه .

٦ - موقف محمد ذاته من الوحي ، في بداية نزول الوحي
عليه ، يجعلنا لا نشك في صحة الوحي وخصوصيته ، فهو قد
خاف في بادئ الأمر ، وأخذ يشرح حالته للمقربين إليه ،
وأهل الخبرة . حدث زوجه خديجة ، وهي أقرب الناس إليه ،
ثم ذهب يعرض حالته على قريبها ورقة بن نوفل ، الذي كانوا
يعتقدون فيه العلم ورجاحة العقل ، وبلغ من حيرته أن الوحي
خاطبه بقوله : ﴿إِنَّ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ
يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ . لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ ، فَلَا
تَكُونُنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾^(١) .

٧ - ولو كان القرآن من وضع محمد ، ألم كان تحدث فيه
عن حدث من أهم الأحداث التي مرت في حياته فأحزنته وألمته

(١) سورة يونس ، الآية : ٩٤ .

مدة طويلة من الزمن ، وهو وفاة زوجه الحنون خديجة بنت خوبيلة ، سنته في دعوته ، وهو في أمس الحاجة إليها . كيف يستطيع إنسان أن يتتجنب الإشارة إلى حدث كهذا الحدث الأليم في كتاب يضعه لأنباعه . وكل امرئ يعرف رغبة الإنسان في الحديث عن كل ما يؤلمه أو يسره .

٨ - يلاحظ المطلع على التوراة والإنجيل والقرآن الكريم توافقاً كبيراً في كثير من الأشياء ، وهو ما يعتبره بعض الناس دليلاً على أن محمداً درس على بعض الأساتذة ، مثل ورقة بن نوفل ، مبادئ الدين . وعلى ذلك فما الإسلام إلا طبعة منقحة للنصرانية ، علمه إيه الكهان والرهبان . ولإثبات ذلك علمياً يلجؤون إلى افتراضات مضحكة لا مؤيدات لها ، ويدخلون في جدل عقيم مع معارضهم ، في حين أن الأمر بسيط ، واضح ، يفسره القرآن نفسه ، فهو يقول : إن مصدر الأديان الثلاثة واحد ، وهي كلها تدعوا إلى التوحيد ، فمن الطبيعي أن تتلاقى . أما الاختلافات الجوهرية فهي ناتجة عن التحوير والتغيير والتبديل الناتج عن القدم ، والتطور ، والهوى والتعصب ، عند غير المسلمين . وأما اختلاف العبادات والطقوس فهو نتيجة طبيعية لاختلاف الأزمنة وتطور البشرية .

وقد ثبت علمياً أن بعض الأحداث التاريخية التي وردت بشكل خاطئ في التوراة والإنجيل جاءت صحيحة في القرآن .

فإذا كان محمد قد تعلم على الأحبار والكهان فكيف استطاع ذلك الأمي التمييز بين الخطأ والصواب فأثبت الصواب وترك الخطأ .

٩ - إن محمداً كان يتшوق إلى الوحي أحياناً فلا ينزل عليه . من أمثلة ذلك ما حدث له في أول الوحي ، فقد انقطع الوحي بعد نزول بعض الآيات ، لدرجة أفلقت الرسول . . ، ولم يخرجه من قلقه وشكوكه وخوفه إلا نزول قوله تعالى ﴿والضحى ، والليل إذا سجا ، ما ودعك ربك وما قالى . . .﴾^(١)

وكذلك الوضع الحرج الذي واجهه يوم حادثة الإفك . وتفصيل ذلك : أن الرسول خرج إلى غزوة بني المصطلق ومعه زوجه عائشة ، وأثناء رجوعه توقف الرجل في الطريق للراحة ، ولما استأنفوا المسير في أواخر الليل ، حمل الرجال المكلفين بهودج عائشة الهودج على بعيرها ولم يشعروا بعدم وجودها فيه لخفة وزنها ، وانطلقا مع الناس ، بينما كانت هي بعيدة عن المكان تفتش عن عقد أضاعته . . ومر بها أحد المتأخرين عن الركب فحملها على بعيره وانطلق خلف القافلة ، فأدركها بعد وصولها إلى المدينة . ورآها الناس ، فأخذ بعضهم يروج الإشاعات المغرضة على عائشة ، حتى وصل الخبر إلى الرسول

(١) سورة الضحى ، الآية الأولى وما بعدها .

وآل بيته فالمه ذلك وآذاه ، وتحير في الموقف الذي يجب عليه اتخاذه .. اللعنة يملأ المدينة ، ومن العرض أكثر ما يؤذى العربي صاحب الأنفة والحمية ، فماذا يفعل الرسول في هذا الموقف الحرج ؟ إنه يتلهف إلى الوحي يُعلمه بالحقيقة ، والوحي لا ينزل . ومضى ما يقارب الشهر على مرض عائشة في بيت أبيها ، وشفت من مرضها وما زال الرسول يتضرر الوحي ، دون طائل حتى بدأ شبه تحقيق معها فإذا بالوحي ينزل : ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوكُمْ بِالْأَلْفَاظِ عَصِبَةً مِّنْكُمْ، لَا تَحْسِبُوهُ شَرًّا لَّكُمْ، بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ، لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ مَا اكتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ..﴾^(١)

ولو أن الرسول كان يضع القرآن ، لما تطلب منه الأمر كل هذا الوقت ، الذي بلغ الأربعين يوماً ، وكل هذا التلهف والتحقق ، كما ورد في كتب السيرة .

١٠ - اجتهدات محمد ﷺ في أمور الدنيا الخاطئة أحياناً ، ونزول القرآن معايناً ومصححاً ، للاجتهدات الخاطئة كما حدث عند فداء أسرى بدر . ولو أنه كان يضع القرآن لأصحابه أفكان يقول عن نفسه ﴿عَبْسٌ وَتُولٌّ . أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى . وَمَا يَدْرِيكَ لِعْلَهُ يَزْكَى . أَوْ يَذَكِّرُ فَتَنَعِّمُ الذَّكْرُى . أَمَا مَنْ اسْتَغْنَى . فَأَنْتَ لَهُ تَصْدِى . وَأَمَا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى . وَهُوَ

(١) سورة النور ، الآية : ١١ .

يخشى فأنت عنه تلهى . . ﴿١﴾ أَفَمَا كَانَ ذَلِكَ يُقْلِلُ مِنْ هِيَبَتِهِ لَدِي
أَتَبَاعُهُ ؟

ولو أنه كان يستطيع إخفاء آية ، أو استبدالها أَفَمَا كَانَ
أَخْفَى قَوْلَهُ عَزَّ وَجَلَ لَهُ : ﴿٢﴾ وَتَخْشَى النَّاسُ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ
تَخْشَى هُوَ . .

هذه بعض الدلائل التي تقطع الشك باليقين بنبوة محمد ،
وبأن القرآن كلام الله الذي أنزله على رسوله ليبلغه إلى الناس
أجمعين .

والذين يعملون عقولهم ويتفكرون في خلق السموات
والأرض يجدون دلائل أخرى ، كل على حسب عقله ، وما آتاه
الله منوعي وفهم ، وحسن مناقشة للأمور ، وبعد عن التعصب
الأعمى .

(١) ورقة عبس ، الآيات ١ - ١٠ .

(٢) سورة الأحزاب ، الآية : ٣٧ .



الفَصْلُ الثَّالِثُ

عا هو
للسلة !

Dar An Nafaes

Dar An Nafaes

تمهيد

يتربى على الإيمان بوجود الله ، وصدق رسوله محمد ﷺ
الإيمان بما كلفَ محمدٌ بتبليغه إلى البشر ، أي بالإسلام ، فما
هو الإسلام ؟

إنه النظام الذي اختاره خالق البشر للبشر ، ليسعدوا في
الدنيا والآخرة لأنه العليم بما يصلحهم . وهو ينظم حياة الإنسان
فرداً وأسرة ومجتمعات ودولـاً . ويبيّن الرابطة بين الإنسان
وربه . ويحل عقدة الخلق وما قبل الحياة ، ويبيّن للناس ما
يتتظرونـهم بعد الممات . وهو يعتمد في مبادئه وأسسـه وأركانـه
القرآن الكريم ، الذي أنزله الله عز وجل على نبيه محمد
صلوات الله عليه ، ليكون هدى للمتقين .

والقرآن كلام الله الذي لا جدال فيه ولا يأتيه الباطل ،
بنص الآية الكريمة ﴿ لَا يأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدِيهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ﴾

تنزيل من حكيم حميد ﴿١﴾ والله عز وجل يصف القرآن الكريم
فيقول :

﴿ ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين ﴿٢﴾ .
﴿ ولقد أنزلنا إليك آيات بيناتٍ وما يكفر بها إلا
الفاسقون ﴿٣﴾ .
﴿ اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء
قليلاً ما تذكرون ﴿٤﴾ .
﴿ كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم
خبير ﴿٥﴾ .
﴿ إنا نحن نَزَّلْنَا الذكر وإنما له لحافظون ﴿٦﴾ .

أنزل الله القرآن على النبي ﷺ بواسطة جبريل : ﴿ وإنك
لتُلَقِّي القرآن من لدن حكيم عَلِيم ﴿٧﴾ وفي بداية الأمر حرص
الرسول على حفظه كيلا ينساه فأخذ يستعيد الآيات بعد تلاوتها
ليتمكن من حفظها ، فخاطبه ربه بقوله : ﴿ لا تحرك به لسانك
لتتعجل به إِنَّ عَلِيْنَا جَمْعُهُ وَقُرْآنُهُ . فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتِّبِعْ قُرْآنَهُ . ثُمَّ إِنَّ
عَلِيْنَا بِيَانِهِ ﴿٨﴾ .

(١) سورة فصلت : الآية ٤٢ . (٥) سورة هود : الآية ١ .

(٢) سورة البقرة : الآية ٢ . (٦) سورة الحجر : الآية ٩ .

(٣) سورة البقرة : الآية ٩٩ . (٧) سورة النمل : الآية ٦ .

(٤) سورة الأعراف : الآية ٣ . (٨) سورة القيامة : الآيات : ١٦ - ١٩ .

وقد نزل القرآن مفرقاً خلال ثلاث وعشرين سنة ليسهل على الناس حفظه وتطبيقه واستيعابه . وكتب في زمن الرسول وحفظه الناس وانتقل إلينا محفوظاً ومكتوباً جيلاً بعد جيل ، فلم يصبِّه التبديل ولا التحويل .

ومن يتبع آيات القرآن الكريم يجدها لا تخرج عن هذين القسمين :

١ - آيات التوجيهات العامة : وهي تأمر الناس بالنظر إلى الكون وتأمله للتعرف على أسراره ، وتبين إبداع الله في خلقه ، وتدعى الناس لأخذ العبرة من قصص الأولين وسلوكهم ومصائرهم . وفيها آيات ترحب في عمل الخير وأخرى تنهى عن الفساد . وتبين أن الجنة هي ثواب المحسنين ، وأن جهنم هي مأوى الخاطئين .

٢ - آيات الأحكام : وهي تنظم علاقات الإنسان بحالقه (العبادات) ، وقد جاءت فيما يقرب من مائة وأربعين آية . وعلاقات البشر بعضهم مع بعضهم الآخر . وتنظيم المجتمع وأحكام الأسرة من زواج وطلاق ووصية وإرث (٧٠ آية) . ونظم الأحكام المالية كالبيع والإجارة والرهن والمداينة (٧٠ آية) . وأحكام الجنایات كالقتل والسرقة والزنا (٣٠ آية) . ثم أحكام الحرب والسلم وما يجب على الحكام من شورى وعدل ومساواة

وفي القرآن آيات لتنظيم الحياة الاجتماعية وعلاقة الأغنياء بالفقراء وحقوق العمال . وفيه أيضاً تنظيم لعلاقات الأمة المسلمة وحكومة المسلمين بالأمم الأخرى . وفيه أمر بالعمل على تقويض المجتمع الفاسد وتغييره بدءاً من تغيير الأنفس ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغِيرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يَغِيرُوا مَا بِأَنفُسِهِم﴾^(١) .

إلا أن القرآن الذي شمل كل قواعد التنظيم ، لم يدخل دائمًا في تفصيلات التنظيم ، بل اكتفى بوضع أسسه الراسخة وقواعده العامة ، وهذا سرّ من أسرار استمرارية الإسلام وصلاحه لكل زمان ومكان . وعلى هذا فإن القرآن الكريم يمثل في الإسلام الدستور بخطوطه العريضة الشاملة التي تضبط كل تشريع يحدد التطبيق العملي لما جاء في الآيات الكريمة . وكما أن في كل مجتمع دستوراً لا يمكن للقوانين أن تخالفه . وكما أن في كل دولة «محكمة دستورية» تستطيع نقض كل قانون يخالف نصوص الدستور أو يتجاوزها ، وإلغاء القوانين التي تثبت عدم دستوريتها ، فإن أي قانون يضعه البشر في المجتمع الإسلامي ، سواء عن طريق القياس أو الاجتهاد أو أي طريق آخر ، لا بد وأن يكون منسجماً مع جوهر الإسلام ، ولا يتعارض مع أحكام الدستور الإسلامي الأعلى (القرآن) من قريب أو بعيد .

(١) سورة الرعد ، الآية : ١١ .

وتدخل السنة المطهرة في باب التطبيق العملي للقرآن الكريم . ولذلك فقد كان الرسول يأمر بحفظ القرآن وكتابته وينهى عن كتابة الحديث الشريف . وللسنة مكانتها كمصدر أساسي من مصادر الدين . وإن فكيف يجب أن نصل إلى وقد ورد في القرآن وجوب الصلاة ولم ترد تفصيلات تنفيذها . وكذلك الحج وغيرة .

لكننا يجب أن نتبين إلى ما اعتبرى السنة خلال العصور المتعاقبة من وضع وتحوير ودس . يقول الشيخ محمد الغزالى في فقه السيرة : « إلا أن السنن المأثورة عرض لها ما يوجب اليقظة في تلقيتها ، فليس كل ما يُنسب إلى الرسول سنة تقبل . ولا كل ما صحت نسبة صح فهمه ، أو وضع موضعه ! وال المسلمين لم يؤذوا من الأحاديث الموضوعة قدر ما أوذوا من الأحاديث التي أسيء فهمها وأضطررت أوضاعها . . . » .

وقد بدأ وضع الحديث عن لسان الرسول في زمانه حسب بعض الآراء مما دعاه إلى القول : « من كذب على عامدًا متعمداً فليتبوأ مقعده من النار »^(١) . وأدرك الصحابة منذ البداية خطورة الأمر ، فهذا علي ابن أبي طالب يقول : « أعزم على كل

(١) أورده البخاري وأبو داود والترمذى في كتاب العلم ، ومسلم في باب الزهد .

من كان عنده كتاب إلا رجع فمحاه ، فإنما هلك الناس حيث
اتبعوا أحاديث علمائهم وتركوا كتاب ربهم »^(١) .

ولما أراد عمر أن يكتب السنن استفتى أصحاب النبي
فأشاروا عليه بكتابتها . فبقي عمر يستخير الله في ذلك شهراً .
ثم أصبح يوماً وقد عزم الله له فقال : « إني كنت أريد أن أكتب
السنن ، وإنني ذكرت قوماً كانوا قبلكم كتبوا كتاباً فأكبوا عليها
وتركوا كتاب الله ، وإنني والله لا أشوب كتاب الله بشيء
أبداً »^(٢) .

وبعدما أورد الشيخ الغزالى أمثلة أخرى مماثلة عن نهي
الأئمة والعلماء عن الاهتمام أكثر من اللازم بالحديث الشريف
يقول : « عمر وعلي وغيرهما من الأئمة لا يجحدون السنة .
ولكنهم يريدون إعطاء القرآن حظه الأوفر من الحفاظ والإقبال .
وذلك هو الترتيب الطبيعي . فلا بد من معرفة القانون كله معرفة
سليمة قبل الخوض في شروح وتفاصيل بعض
أجزائه . . . »^(٣) .

ونحن نجاري الغزالى في هذا الرأى ، فمن تمسك

(١) فقه السيرة عن ابن عبد البر في كتابه « جامع بيان العلم وفضله » .

(٢) عن فقه السيرة ، محمد الغزالى ، دار الكتاب العربي بمصر (المقدمة) .

(٣) عن فقه السيرة ، محمد الغزالى ، دار الكتاب العربي بمصر (المقدمة) .

بالأصل تمسك بالأصل والفرع ، ومن أضاع الأصل أضاع الفروع أيضاً . ومن هذا المنطلق نقول إنه لا صلاح لل المسلمين إلا بالعودة إلى القرآن الكريم ، دستور المسلمين ونبع الدين الأصلي ، والالتزام به نصاً وروحًا ، وتطبيقه تطبيقاً يتلاءم مع روح العصر ولا يخالف جوهر الدين ، مع اتباع مبدأ عام لا حياد عنه عندأخذ الأحاديث ، وهو التأكيد من صحة إسنادها ، والتحقق من مدى تطابق مضمونها مع تعاليم القرآن أولاً ، ومع جوهر العقيدة الإسلامية كما أنزلها الله سبحانه وتعالى ثانياً .

أركان الإسلام

وأركان الإسلام حددتها الرسول بقوله : « الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ، وتقيم الصلاة ، وتوتري الزكاة ، وتصوم رمضان وتحجج البيت إن استطعت إليه سبيلاً »^(١) . قوله في حديث آخر وبالمعنى ذاته « بُني الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وحج البيت ، وصوم رمضان »^(٢) .

وهذه هي أركان الإسلام - أي دعائمها - ولكنها ليست كل

(١) جاء في الأربعين النووية في الحديث آثاني منها .

(٢) رواه البخاري ومسلم في كتاب الإيمان .

الإسلام ، فالإسلام عقيدة وعبادة ومنهاج حياة . وشهادة أن لا إله إلا الله يستتبعها الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره من الله تعالى ، وهذا ما يسمى العقيدة . أما الصلاة والزكاة والصوم والحج فهي العبادات .

الركن الأول : الشهادتان

الشهادتان هما شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله . وهذا هو الركن الأول من أركان الإسلام ، وعليه ينبغي الإسلام كله ، فالله يغفر بالتوبية كل شيء طالما كان الإنسان مسلماً مؤمناً ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يغفرُ أَن يشْرُكَ بِهِ وَيغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء﴾^(١) . أما إذا قام المرء بأعمال المسلمين ، ولم يكن معتقداً بوحدانية الله وبصدق نبيه ، فلا قيمة لأعماله في الآخرة : أما في الدنيا فقد يرزق كثيراً ، ويرتاح ظاهرياً .

وشهادة أن لا إله إلا الله يترتب عليها طاعة الله والالتزام بأوامره واجتناب ما نهى عنه . وهذه الواجبات ، أو بالأحرى ما يترتب على شهادة أن لا إله إلا الله ، بينها الرسول ﷺ . ولذلك قرن الله بين الشهادة له باليوحانية والشهادة لمحمد بالنبوة وبأنه رسول الله إلى البشرية .

(١) سورة النساء ، الآية : ٤٨ .

والمقصود بأشهد أن لا إله إلا الله، الشهادة بالعقل والقلب واللسان . وان تكون الشهادة جازمة لا تردد فيها . ولا يعرف الإنسان ما يلزم شهادته بأن لا إله إلا الله إلا إذا شهد لرسوله بالرسالة والنبوة . «إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلاً . أولئك هم الكافرون حقاً»^(١) . وهكذا فقد بينت الآية أن الكفر بالأنباء كفر حقاً .

ويستتبع الإيمان بالشهادتين ، الإيمان بما أخبر به الرسول عن الله عز وجل ، وأخبر أنه من أركان الإيمان وهو : الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره من الله عز وجل . ويكتفي للدخول في الإسلام الالتزام بالشهادتين لأن أركان الإيمان تدخل ضمنها ، وهي من مستلزماتها .

جاء في كتاب الإسلام^(٢) : « فمن التزم بالشهادتين كان التزامه بهما في الحقيقة التزاماً بكل أركان الإيمان الأخرى . ولذلك يكتفى من الإنسان إذا أراد الدخول بالإسلام أن يقول : «أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله» ، ويعتبر

(١) سورة النساء ، الآيات : ١٥٠ و ١٥١ .

(٢) الإسلام ج ١ ، ص ٢٧ .

بذلك من المؤمنين إن كان صادقاً ، مع أنه لم يتلفظ بكل أركان الإيمان ، وما ذلك إلا لأن أركان الإيمان كلها داخلة في الشهادتين . وتفصيل ذلك : ان «أشهد أن لا إله إلا الله» ذكرت صراحة الركن الأول من أركان الإيمان وهو الإيمان بالله . وأن «أشهد أن محمداً رسول الله» ذكرت صراحة الإيمان بالرسول ، والإيمان بالرسول يقتضي أن نؤمن بكل رسول لله أخبرنا عنه هذا الرسول الصادق . فدخل الركن الثاني من أركان الإيمان بذلك وهو الإيمان بالرسل . ومن آمن بالله والرسل آمن بالملائكة الذين أخبر عنهم الرسل ، فهم الواسطة بين الله والرسل في تبلغ أمر الله ووحيه . ومن آمن بالله والرسل والملائكة آمن بالوحي ، ومن آمن بالوحي آمن بالكتب .

ومن آمن بالله والرسل والملائكة والكتب آمن باليوم الآخر ، لأن وجود اليوم الآخر فرع عن الإيمان بقدرة الله وعدله وفضله . وقد أخبرنا عنه الرسل ذكر في الكتب . والإيمان بالقدر فرع عن الإيمان بالله ، فمن آمن بعلم الله الأزلي وإرادته التي خصت الأشياء بالوقوع ، وقدرته التي أبرز بها الأشياء ، وكون ذلك قد كتب في اللوح المحفوظ ، فقد آمن بالقدر .

والإيمان لا يتجزأ ، فلا يتم إيمان الإنسان إذا آمن بالله مثلاً وكفر برسوله أو بالكتب السماوية أو بقدر الله ... الخ .

العبادة

قبل الحديث عن الصلاة يجدر بنا أن نعطي فكرة عامة عن العبادة في الإسلام بشكل عام ، ثم ننتقل إلى الحديث عن الصلاة ، أهم العبادات في الإسلام ، وعماد الدين حسب قول الرسول الكريم .

ليست العبادة في الإسلام غاية بذاتها ، إنما هي وسيلة لغاية أعمق من الطقوس والحركات الظاهرة . ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لِحُومُهَا وَلَا دَمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنْكُمْ﴾^(١) .

ولئن كان سبب العبادة الخضوع لله عز وجل ، وهو سبب فكري وعاطفي ، فإن نتيجتها إن صدرت عن السبب تظهر في سلوك الإنسان . قال تعالى : ﴿إِنَّ الْأَنْسَانَ خَلَقَ هَلُونًا . إِذَا مَسَهُ الشَّرُّ جَزُوعًا . وَإِذَا مَسَهُ الْخَيْرُ مُنَوِّعًا . إِلَّا الْمُصْلِينَ . . .﴾^(٢) وقال : ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَر﴾^(٣) . وقال : ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّابَرِ وَالصَّلَاةِ﴾^(٤) . لذلك لم يكن القصد من العبادة أشكالها الظاهرة ﴿لَيْسَ الْبَرُّ أَنْ تَوْلِي وَجْهَكُمْ قَبْلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾^(٥) .

(١) سورة الحج الآية : ٣٧ . (٤) سورة البقرة ، الآية ٤٥ .

(٢) سورة المعارج : الآيات ١٩ - ٢٢ . (٥) سورة البقرة ، الآية ١٧٧ .

(٣) سورة العنكبوت : الآية ٤٥ .

فإن لم تصدر العبادة عن سببها لم تؤدي نتائجها ، وإن لم تؤدي نتائجها إلى عادة يصدق فيها قول الرسول الكريم : «كم من قائم ليس له من قيامه إلا السهر ، وكم من صائم ليس له من صومه إلا الجوع والعطش»^(١).

ولئن كان الإسلام يشعر الإنسان بالطمأنينة ﴿فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى ..﴾^(٢) ، فإن العبادة تشعره بالراحة . فقد كان المسلمين الأولون صحابة رسول الله ﷺ إذا أزعجهم أمر فزعوا إلى الصلاة . وكان الرسول يقول : «أرحنَا بها يا بلال» . يقصد الصلاة ، وصدق الله العظيم إذ يقول : ﴿ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾^(٣) .

الركن الثاني : الصلاة

فرض الله الصلاة على المسلمين فقال : ﴿وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة﴾^(٤) . وقال : ﴿قل لعبادي الذين آمنوا يقيموا الصلاة﴾^(٥) . وقال : ﴿حافظوا على الصلوات

(١) رواه النسائي ، عن فضي الدين القدير وقد علق عليه بقوله (صحيح) .

(٢) سورة طه ، الآية ١٢٣ .

(٣) سورة الرعد ، الآية ٢٨ .

(٤) سورة البقرة ، الآية ١١٠ .

(٥) سورة إبراهيم ، الآية ٣١ .

والصلاحة الوسطى وقوموا لله قانتين ﴿١﴾ .

والذي أراه في معنى الصلاة الوسطى ليس ما يذهب إليه معظم المفسرين بأنها الظهر أو العصر ، إنما المقصود «بالوسطية» شكل الصلاة ، فلا تكون طويلة أو كثيرة ، ولا قصيرة أو قليلة ، لأن الله عز وجل جعل المسلمين أمة وسَطَا في كل شيء : ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ..﴾ ﴿٢﴾ .

وقد صلَّى الرسول ﷺ الصبح ركعتين ، والظهر أربع ركعات ، والعصر أربع ركعات ، والمغرب ثلاث ركعات ، والعشاء أربع ركعات . وصلَّى الركعات الأربع ركعتين في السفر ، وجمع أحياناً بين الظهر والعصر وبين المغرب والعشاء .

وإذا حان وقت الصلاة أشعر المؤذن الناس بدخول الوقت . والأذان ستة . ويفترض أن تؤدي الصلاة في المساجد جماعة لما في الاجتماع من وحدة وإلفة . ثم يقيِّم الإمام أو من ينوبه عنِّه الصلاة . والإقامة سنة أيضاً ، ومن فاتته الصلاة في

(١) سورة البقرة ، الآية ٢٣٨ .

(٢) سورة البقرة ، الآية : ١٤٣ .

المسجد يصلّي في أي مكان ، فالأرض لله ، والصلة عبادة لا ترتبط بمكان ، ولكنها مشروطة بالطهارة ، والوضوء قبل الصلاة ، أو التيمم لمن لا يتيسر له الوضوء .

وفرض الله على المسلمين كل يوم جمعة صلاة في وقت الظهر يشترط أن يؤديها المسلم جماعة ، وإذا أدتها سقطت عنه صلاة الظهر ، وإذا فاتته صلّى الظهر . وصلّى الرسول في العيدين ركعتين في كل عيد ، وصلاة العيد ستة ، وإذا مات المسلم صلّى عليه إخوانه جماعة .

وشرح ذلك مبسوط في كتب الفقه ، ولا تضر اختلافات الفقهاء ، إنما يضر التعصب لرأي فقيه ما ورفض ما سواه .
﴿يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر﴾^(١) .

الركن الثالث : الزكاة

الزكاة هي الركن الثالث من أركان الإسلام فرضها الله على المسلمين وقرن بينها وبين الصلاة في كثير من المواضع فقال جل شأنه :

﴿وأقيموا الصلاة وآتوا الزكوة﴾^(٢) .

(١) سورة البقرة ، الآية : ١٨٥ .

(٢) سورة البقرة ، الآية : ١١٠ .

﴿الذين إن مكثاهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة﴾^(١).

﴿فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله﴾^(٢).

﴿وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الرسول لعلكم ترحمون﴾^(٣).

والزكاة عبادة يتقرب بها الإنسان إلى الله عز وجل . ولكنها عبادة من نوع خاص ، فيها تنظيم كامل للثروة وللمال في الإسلام ، يؤدي بالإنسان إلى الابتعاد عن كنز المال كي لا تأكله الزكاة فيكون المال في حركة مستمرة . ﴿والذين يكتنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم﴾^(٤) . وهي حق لمستحقها بنص القرآن الكريم ﴿والذين في أموالهم حق معلوم . للسائل والمحروم﴾^(٥).

ومقدار الزكاة ٢٥٪ من مجموع المال الذي يحول عليه الحول (السنة) ، أي أن المرء يقوم ممتلكاته في تاريخ يختاره

(١) سورة الحج ، الآية ٤١ .

(٢) سورة الحج ، الآية ٧٨ .

(٣) سورة النور ، الآية ٥٦ .

(٤) سورة التوبية ، الآية : ٣٤ .

(٥) سورة المعارج ، الآيات : ٢٤ - ٢٥ .

من السنة ، فإذا كان أكثر من النصاب^(١) ومضى العام يقوم ممتلكاته في التاريخ ذاته ، ويحذف منها ما في ذمته من ديون ويضيف إليها ما له من ديون مضمون سدادها ، فيكون عليه أن يدفع من مجموع قيمة الباقي ٢٥٪ زكاة ماله .

والأموال التي تجب عليها الزكاة هي : عروض التجارة ، والذهب والفضة (لا يدخل فيها حلي المرأة) ، والأوراق النقدية ، والزروع والثمار ، والأنعام ، والمعدن والركاز (الكتز)^(٢) .

وتقوم الدولة الإسلامية بجباية الزكاة ، ولها حق أخذها بالقوة من الذي يمتنع عن دفعها . وقد حارب أبو بكر المرتدين الذين امتنعوا عن دفع الزكاة وقال قوله المشهورة : « والله لو منعوني عقال بغير كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعه » .

وقد حدد القرآن الكريم أوجه صرف الأموال التي تجمع من الزكاة فقال : ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفَقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤْلَفَةُ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾

(١) النصاب : هو الحد الأدنى الذي تجب فيه الزكاة . ويرجع إلى كتب الفقه لمعرفته بدقة .

(٢) للتوسيع في موضوع الزكاة ونسبتها راجع « فقه الزكاة » ليوسف القرضاوي .

وابن السبيل ، فريضة من الله ، والله عليم حكيم ﷺ^(١) . أي إن أموال الزكاة تتفق على :

١ - الفقراء الذين لا مال لديهم والعمال العاطلين عن العمل عندما لا يتوفّر العمل لجميع العمال الذين يعتاشون بعمل أيديهم .

٢ - المساكين وهم أحسن حالاً من الفقراء لكنهم لا يملكون الكفاية .

٣ - الموظفين الذين يقومون بجباية الزكاة وتوزيعها .

٤ - المؤلفة قلوبهم : وهم الذين أسلموا ولم يتعصّمُوا بالإسلام في قلوبهم فيُعطون من الزكاة لاستعمالهم .

٥ - الغارمين ، أي المدينين الذين لا يستطيعون وفاء ديونهم .

٦ - العبيد ، لمساعدتهم في الحصول على الحرية .

٧ - المسافر الذي ينقطع في بلد غريب أو في الطريق .

٨ - في سبيل الله . أي للمجاهدين والفدائيين والمرابطين .

ويُعطى من الزكاة طلبة العلم لأنهم يقومون بفرض ، ولا يعطي منها المترغبون للعبادة لأن الله لم يأمر بالانقطاع للعبادة .

(١) سورة التوبة ، الآية ٦٠ .

ويكون العطاء ما يكفي ويغني ويمنع الحاجة ، والدولة المسلمة تقدر ذلك وكيفيته .

وفي العصر الحاضر يمكن أن تنشئ الدولة مؤسسة خاصة للزكاة ، على غرار مؤسسات الصندوق الوطني للضمان الاجتماعي مثلًا ، وتجبي المؤسسة الزكاة من الناس ، وتتفقها في مصارفها التي حددها الشرع ، بحسب نظام تطبيقي يوضع لها .

مميزات نظام الزكاة

أولاً - طالما أن الزكاة تؤخذ من مجموع رأس المال مع الربح ، فإن صاحب المال يضطر إلى تشغيل أمواله وعدم كنزاها ، لأنه في حال تشغيلها لا تبلغ الزكاة مجموع الربح في أغلب الأحيان وبذلك يبقى المال نامياً . أما إذا لم يشغل أمواله ، فإن الزكاة تخرج من رأس المال ، وخلال سنوات ينتهي رأس المال وتأكله الزكاة .

ثانياً - في نظام الضمان الاجتماعي الذي يعتبر من منجزات الحضارة الغربية يسجّل العمال في مؤسسة الضمان ، ويدفع كل منهم جزءاً من راتبه أو تدفعه المؤسسة التي يعمل فيها ، ومن الطبيعي أن تحسمه المؤسسة التي يعمل فيها مسبقاً

من راتبه . وما يدفعه العمال يتجمع في صندوق الضمان الاجتماعي ، وينفق منه لإدارة المؤسسة التي تشغّل الأموال . وبعدما يتقادع العامل المضمون أو يصاب بمرض يبدأ الإلّا فادة من هذه الأموال حسب نظام المؤسسة وحسبما دفع ، وليس حسب احتياجه . فالذى يدفع يأخذ ، وبعد أجل ، ولا يحصل على كفايته .

أما في نظام الزكاة فإن الذين يدفعون هم الأغنياء ، والذين يأخذون هم الفقراء . فالذين يدفعون غير الذين يأخذون ، إلا إذا تغير وضع الغني فأصبح فقيراً . والذي يأخذ ، يأخذ مقدار حاجته وكفايته . وبذلك لا يبقى في المجتمع محتاج .

ولقد كان فرض الزكاة أول ركن عُطل من أركان الإسلام . وكانت الردة بعد وفاة الرسول في معظمها لإيقاف دفع الزكاة . ولا شك في أن تعطيل هذا الركن هو السبب الذي يجعل المسلمين يحاولون استيراد المبادئ حالياً ، من الشرق تارة ومن الغرب تارة أخرى ، لحل المشاكل الاقتصادية والاجتماعية التي تواجههم ، فيصدق فيهم القول :

كالعيس في البداء يقتلها الظمى والماء فوق ظهرها محمل

الركن الرابع : الصوم

يقول الله عزوجل : « يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقوون ، . . . ، شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان فمن شهد منكم الشهر فليصمه ومن كان مريضاً أو على سفر فعِدَةٌ من أيام أخر ي يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر »^(١) .

والصوم هو الإمساك عن الطعام والشراب والجماع ، من طلوع الفجر إلى غروب الشمس خلال شهر رمضان . وليس لنا أن نناقش لماذا كان الصوم شهراً ، أول ماذا لم يفرضه الله في الربع أو الشتاء ، فذلك أمر الله ولحكمة لا نعلمها ، ولكنها قد تتبين لنا بعض حكمه في أوامره . فالمسلم يصوم التزاماً بأمر الله عزوجل ابتداءً ، وله أن يتلمس العلل والأسباب في ذلك الأمر بعد ذلك . فربما كان صيام شهر قمرى يؤدى إلى دوران الشهر كل ٣٦ سنة ، فيأتي في الوقت ذاته من العام ، ويكون الإنسان قد صام كل يوم في السنة . . .

ويقول بعض الناس أن الصوم يفيد الصحة ، وينطلقون بالدفأع عن الصيام من هذا المنطلق (صوماتصحوا) ، بينما يؤكّد البعض الآخر أنه يؤذى الجسم والصحة . وربما كان يفيد بعض

(١) سورة البقرة ، الآيات : ١٨٣ و ١٨٥ .

الأجسام ويضر ببعضها . كل هذا لا يهم ولا يصح منطلقًا للحديث عن الصيام . فالآلية الكريمة حددت الغاية من الصيام ﴿ يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون ﴾^(١) . فإذا لم تكن ثمرة الصيام التقوى فلن ينال المسلم من صيامه إلا الجوع والعطش .

وأقل مراتب الصيام ، الإمساك عن الطعام والشراب والجماع من طلوع الفجر إلى غروب الشمس . ولكن هذا لا يكفي ليكون الصيام كاملاً ، إذا لم يرافق ذلك صوم الجوارح عن المعاصي والآثام . فصوم اليد إمساكها عن تناول المحرمات وإيذاء الآخرين ، وصوم الرجل إمساكها عن السعي إلى الفساد ، وصوم اللسان إمساكه عن قول المنكر والكذب والغيبة والنميمة والفحش وزور الكلام ، وصوم الأذن إمساكها عن الإصغاء إلى الإفك واستماع الأكاذيب والإنصات إلى النمامين ، وصوم العين عن النظر إلى المحرمات والأسرار . جاء في الحديث الشريف « الصيام جنة^(٢) » ، فإذا كان أحدكم صائماً فلا يرث ولا يجهل ، فإن أمرؤ قاتله أو شاتمه فليقل إني صائم^(٣) . كما أن الصيام صوم القلب وتطهير النفس عن كل ما لا يناسب الإيمان . فالحسد

(١) سورة البقرة ، الآية : ١٨٣ .

(٢) أي وقارية .

(٣) رواه مالك في باب جامع الصيام .

إفطار ، والحقد إفطار ، والسكوت عن المنكر يُرتكب إفطار ،
والتلاعيب بالمصالح العامة إفطار .

يقول الاستاذ محمود شلتوت بعد ذكر تفصيل ما أوجزناه

آنفًا^(١) : وتنفيذ الصوم على ثلاثة مراتب :

- الأولى : الإمساك عن الطعام والشراب والشهوة .

- الثانية : بالإضافة إلى الأولى صوم الجوارح عن الآثام .

- الثالثة : بالإضافة إلى الاثنين صوم القلب وتطهيره عن كل

ما لا يناسب الإيمان .

تلکم هي مراتب الصوم ، وإذا كان الفقهاء قد تمسکوا
بطوادر النصوص ، فقلوا بصحمة الصوم لمجرد الإمساك عن الطعام
والشراب والشهوة وهي المرتبة الأولى ، فذلك لأنهم يشرحون صوم
المؤمنين . ومن سمات الإيمان قبل الصوم : كف الجوارح عن
الآثام ، وتطهير القلوب عن التفكير فيما لا يناسب الإيمان . وقد
أفصح رأي العلماء الذين عرفوا روح الشريعة وأدركوا أسرار
الدين ، أن هذه المرتبة من الصوم لا تعتبر ولا تعد شيئاً مذكوراً ، وأن
الصوم الذي أمر به الله وكلف عباده به لا يتم إلا إذا صامت مع البطن
الجوارح والقلوب . وقد روى عن جابر عن أنس عن رسول الله ﷺ أنه قال : « خمس يفطرن الصائم : الكذب ، والغيبة ،
والنميمة ، واليمين الكاذبة ، والنظر بشهوة »^(٢) .

(١) من توجيهات الاسلام ص ٣٥٣ .

(٢) أي يذهب الأجر ، ويلزمه أن يبقى ممسكاً عن الطعام والشراب والجماع .

الركن الخامس : الحج

﴿وَلَهُ عَلٰى النَّاسِ حُجُّ الْبَيْتِ مِنْ أَسْطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا، وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾^(١).

شروط وجوب الحج بالإضافة إلى الإسلام : البلوغ والعقل والحرية والاستطاعة . وأما المرأة فيجب أن يكون معها زوجها أو أحد الرجال الذين يحرم زواجهما منهم .

وتبدأ أعمال الحج بالإحرام من مكان محدد لأهل كل بلد يسمى «المiqat». ويكون الإحرام بأن يخلع الإنسان ملابسه العادية ، ويرتدى منشفتين (أو شرسفين غير مخيطين) يلف إحداهما على خصره ويضع الثانية على كتفيه ، ويلبس نعلين يكشفان عن الكعبين ، ومتى أحرم لا يجوز له لبس الثياب المخيطة العادية ولا الحلاقة وإزالة الشعر أو قص الأظافر أو الصيد أو الفحش في القول .

والإحرام هو الركن الأول من أركان الحج ، أما الركن الثاني فهو الوقوف بعرفة ، والثالث طواف الإفاضة ، والرابع السعي بين الصفا والمروة .

وللحج واجبات وسنن تذخر بها كتب الفقه المختصة . وتبدأ

(١) سورة آل عمران ، الآية : ٩٧.

أعمال الحج من اليوم الثامن من ذي الحجة ، وتنتهي في الثاني عشر أو الثالث عشر من كل عام .

ومن يتم عن بهذه العبادة يجد فيها حِكْمًا لا تعدُ ولا تحصى ، فهي عبادة عملية جماعية ، تجمع المسلمين من كافة أقطارهم ، يأتون إلى مكة المكرمة بلباس بسيط موحد ، فتتجلى المساواة بينهم حتى في المظهر الخارجي . ويقفون على صعيد واحد متوجهين إلى الله عز وجل بالتضرع والدعاء . لا تميز بينهم قومية أو لون أو مال أو سلطان ، ولا تزيين بلباس ، أو تأنق بمظهر .

ويفترض في هذا الاجتماع أنه مؤتمر شعبي عام ، يتداول فيه المسلمون في أمورهم وأحوال أقطارهم ، فتقوى الروابط بينهم ، ويشعر كل منهم بالآلام إخوانه وأفراحهم في البلد الآخر .

وفي الحج يعيش الإنسان في أرض الإسلام الأولى ، وهي أرض شديدة الحرارة ، تصعب الحياة فيها رغم وسائل الرفاهية الحديثة ، فما بالك في تلك الأيام حيث لم يكن هناك ماء جاري أو كهرباء أو بناء بالمفهوم المعاصر . في تلك الأرضي القاحلة ، ومن بين الصخور السوداء الصلدة انبثق الإسلام ، وحمله عرب تلك الديار إلى العالم كله .

ويذكر المسلم هناك أجداده وما بذلوه وما قاسوه ، ويعرف معنى الرمضان ، ويدرك حجم العذاب الذي قاساه

المستضعفون من المسلمين على أيدي أسياد مكة ، فلا تربط عزائمه وهو يرى أحوال المسلمين المتردية الآن ، ويدرك تمام الإدراك أن ما حصل مرة يمكن أن يحصل مرات ، وأن بوسع المسلمين أن ينهضوا ويحملوا النور للبشرية من جديد ، ويكونوا كما كانوا في الماضي رُسل الخير والمحبة والعدالة والعلم والمساواة لجميع البشر .

وفي الحج ناحية أخرى فردية ربما يغفل عنها بعض الناس . فكل إنسان يرتكب الأخطاء ، وكل من ارتكب إثماً يشعر بعداًب الضمير . وتراكم الذنوب ، وتزداد في ضمير الإنسان المأسى والأحزان حتى ليشعر بأنه لن يُغفر له فييأس من الحياة ، أو يتحول إلى إنسان شرير فعلاً لا هم له سوى أذى الناس . فإذا حج الإنسان شعر براحة الضمير والتخلص من الذنوب ، لأن الرسول ﷺ يقول : « من حج لله فلم يرث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه »^(١) .

وهكذا يفترض بالحاج أن يبدأ بعد حجه ، حياة جديدة ، ويبداً تدريبه على هذه الحياة المثالية أثناء تأدية فرضه حيث ﴿فلا رفت ولا فسوق ولا جدال في الحج، وما تفعلوا من خير يعلمه الله ، وتزودوا فإن خير الزاد التقوى﴾^(٢) .

(١) رواه السيدة في الصحاح الا أبو داود .

(٢) سورة البقرة ، من الآية ١٩٧ .

والآن وبعد ما تحدثنا بإيجاز عن أركان الإسلام ، لا بد من التنبه إلى أن هذه الأركان ليست الإسلام كله . فلو شبهنا الإسلام ببيت فهذه أعمدته . وهدم أحد الأعمدة يؤدي إلى تهدم البيت أو تصدعه . لكن فقدان لوح زجاج واحد ، على حقارته ، في البيت ، يجعل الرياح تعصف في جنباته ويتحول الحياة فيه إلى جحيم لا يطاق . بل إن انسداد مصرف ماء يعمم القاذورات ، و يؤدي إلى انتشار الروائح الكريهة ، فتصعب الحياة أو تستحيل .

كذلك فإن الزيادة أو النقصان في أي ركن أو جانب من جوانب الإسلام يحوله إلى ما يشبه الصورة الكاريكاتورية يضخم فيها عضو من الأعضاء فتخرج الصورة عن الواقع السوي .

الإسلام حرم القتل والسرقة والزنا وشرب الخمر وقدف المحسنات والفساد في الأرض ، وحدد لذلك عقوبات صارمة رادعة هي « الحدود » .

ونهى عن الكذب ، والميسر (لعبة القمار) ، وشهادة الزور ، والربا ، والاحتكار ، والغيبة ، والنسمة ، والرياء ، والكبير ، وكنز الأموال ، والبخل ، وغير ذلك مما تكرر ذكره في القرآن الكريم والحديث الشريف .

والإسلام فرض على المسلمين فروضاً كثيرة منها ،

الجهاد في سبيل الله ، وحفظ أسرار المسلمين ، والوفاء بالعهود ، والإصلاح بين الناس ، والصدق ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والإحسان إلى الوالدين ، وحسن المعاشرة بين الزوجين ، والتعلم ، والتعليم ، والأمانة ، والانتصار للمظلوم ، ومحاربة الظالم ، والعدل في كل شيء والاعتدال في كل شيء ، والصبر على الشدائـد ، والتفكير في خلق الله . وغير ذلك .

ومخالفـة أي أمر من أوامر الله عز وجل من قبل أي عضـو في المجتمع الإسلامي تخلـ في المجتمع الإسلامي كله ، وبخـاصة إذا ازداد عدد المخالفـين وتناولـت المخالفـات تلك الأوامر والنواهي التي لها علاقـة بالمجتمع عمومـاً .

إن تطبيق الشريـعة الإسلامية يجعل المجتمع الإسلامي مجـتمـعاً مـتمـيـزاً ، ويـجعل المسلم يـحيا حـيـة سـعيـدة ، حـيـة عـزيـزة كـريـمة ، لا يـخـاف الا الله . ولا يـخـشـى غـيرـه . وهذا ما يـنـقلـنا إلىـ الحديث عنـ المجتمع فيـ ظـلـ الـاسـلام .

Dar An Nafaes



الفَصْلُ الرَّابِعُ

المجتمع في ظل
الفساد

Dar An Nafaes

Dar An Nafaes

عندما نتحدث عن المجتمع الإسلامي ، فإننا نقصد المجتمع الذي يتمسك (حكومة وشعباً) بجوهر الشريعة الإسلامية كما أنزلها الله سبحانه وتعالى . ويبتعد عن البدع التي حاول بعض المسلمين في العصور المتأخرة لصقها بالدين الإسلامي زوراً وبهتاناً . هذا المجتمع يتميز عن غيره من المجتمعات بأنه مستقر من الداخل متحرك متفاعل مع الخارج . فهو مجتمع الإيمان والعدالة والمساواة والإخاء والتعاون ، كما أنه في الوقت نفسه مجتمع العمل والعزة والقوة والعلم .

وقد عرف المسلمون مثل هذا المجتمع في صدر الإسلام وفي فترات قصيرة في المراحل المتعاقبة ، فكانت دولهم منارة للعالم ، وقلعة صامدة تتكسر على أسوارها اعتداءات الطامعين ، وكان مجتمعهم يتصف بالكثير من الفضائل السامية . ويمكن تلخيص الصفات التي يفترض أن يتحلى بها المجتمع الإسلامي بما يلي :

١ - الحرية

تتجلى الحرية في الإسلام بأجلٍ مظاهرها . وهي تشمل جميع الحريات المعروفة في العصر الحاضر ، قبل أن تفكَر فيها المجتمعات المعاصرة التي تدعى التحضر ، بمئات السنين . وفي مقدمة هذه الحريات الحرية الدينية (حرية المعتقد) . يقول الله عز وجل ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ، قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾^(١) .

ويخاطب الله عز وجل رسوله بقوله : ﴿ إِنَّ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ، إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ ﴾^(٢) . ويقول في مكان آخر مستنكراً الإكراه على الإيمان ﴿ أَفَأَنْتَ تُكَرِّهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ ؟ !^(٣) .

وطبق الرسول ﷺ هذا المبدأ ، فكانت المعاهدات التي عقدها تتردد فيها عبارة « ومن كان على يهوديته أو نصرانيته ، فإنه لا يفتن عنها »^(٤) .

وقد خصصنا حرية المعتقد بالكثير من الشواهد لنڌحضر

(١) سورة البقرة ، الآية ٢٥٦ .

(٢) سورة الشورى ، الآية ٤٨ .

(٣) سورة يونس ، الآية ٩٩ .

(٤) الطبرى ، الجزء الثالث ، ص ١٢١ - ١٢٩ .

مقوّلات الأعداء الذين غرسوا في نفوس الناس : أن الإسلام انتشر بالسيف ، فمن لا يُسلّم يُقتل حتى أصبحت العامة تردد كالبيغاوات في أهازيجها « دين محمد دين السييف » بينما هو في الواقع دين العقل ودين المنطق والاقناع . والآيات المذكورة آنفاً دليل ساطع على خطأ مقولتهم وعدم استنادها إلى آية قاعدة صحيحة .

ولئن كانت حرية المعتقد ، من أهم الحرّيات ، وأقدسها فإن الإسلام ضمن أيضاً لبني البشر جميعاً حرية التعبير ، والتنقل ، والسكن ، والتملك ، وحرم المنازل ، وترك لأفراد المجتمع حرية ممارسة السياسة والعمل السياسي ضمن حدود الشرع .

٢ - المساواة

ان المنصف الذي يطلع على المساواة في الإسلام ، يذهل من شموليتها ومن الإصرار على الدقة في تطبيقها من قبل الرسول ﷺ وخلفائه .

يقول الله عز وجل : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ ذَكْرٍ وَّأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شَعُوبًا وَّقَبَائِلَ لِتَعْرَفُوا، إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَاكُم﴾^(١) . فالخطاب هنا للناس كافة . وتقرير المساواة

(١) سورة الحجرات ، الآية ١٣

واضح بين الذكر والأنثى وبين أفراد البشر عموماً . وهذا بنص القرآن الكريم ، أما أقوال الرسول ﷺ في ذلك فكثيرة ، وأشهرها قوله : « الناس سواسية كأسنان المشط » قوله « لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالقوى » .

ولقد طبق الرسول وخلفاؤه المساواة في كل ما عرض عليهم من أمور . نضرب على ذلك مثلاً بحادثة اشتهرت أكثر من غيرها في زمن الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه . فقد أسلم جبلة بن الأبيهم ، وهو أحد ملوك بني جفنة ، وجاء إلى مكة يريد الحج فاستقبله أهلها وعلى رأسهم الخليفة عمر ، وأكرمه الخليفة ولاطفه .. حتى إذا كان يوم الطواف ، وبينما جبلة يطوف بالبيت داس على طرف إزاره رجل من عامة الناس ، تذكر كتب التاريخ أنه أعرابي من بني فزاره . فلطمته جبلة فهشم أنفه ، فاشتكى الرجل إلى عمر .

وسائل عمر جبلة عن الموضوع ..

قال جبلة : إنه تعمَّد حلًّا إزاريا ولولا حرمة الكعبة لضررت بين عينيه بالسيف .

فقال له عمر : قد أقررت ، فإنما أن ترضى الرجل وإنما أن أقدره منك (أي أعقابك بمثل ما فعلت) .

قال جبلة : ماذا تصنع بي ؟

قال عمر : آمر بهشم أنفك كما فعلت . (قالها عمر هكذا بكل بساطة ، فذلك ما يقتضيه العدل والمساواة) .

قال جبلة : وكيف ذلك يا أمير المؤمنين وهو سوقة وأنا ملك ؟

قال عمر : إن الإسلام جمعك وإياب ، فلست تفضله بشيء إلا بالتقى والعافية .

ولما أدرك جبلة أنه لا محالة سينال جراء فعلته طلب الاستمهال للغد ، وفي الليل هرب من مكة ولحق بالروم وتنصر ، وبقي طول حياته نادماً على ما فعل . هذا هو الإسلام ، وهكذا فهم المسلمون المساواة ، وهكذا طبقوها .

٣ - العدل

العدل والمساواة صنوان لا يفترقان ، وقد حرص الإسلام على تعميم العدل بين الناس وشدد على ذلك ، بقول الله عز وجل : « إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل »^(١) .

ويقول جل شأنه في آيات أخرى : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان »^(٢) .

(١) سورة النساء : الآية ٥٨ .

(٢) سورة التحـلـ ، الآية : ٩٠ .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَامِينَ لِلَّهِ شَهِداءَ بِالْقِسْطِ
وَلَا يَجْرِمُكُمْ شَتَانٌ قَوْمٌ عَلَى أَلَا تَعْدِلُوا ، اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ
لِلتَّقْوِيَةِ ﴾^(١).

فهو يأمر بالعدل ، وبأن لا يمنع بغض قوم وعدواتهم من العدل في حقهم . فإذا كان العدل مع الأعداء واجباً فمن متمماته النهي عن محاباة الأقرباء . قال تعالى : ﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ
كَانَ ذَا قُرْبَى ﴾^(٢).

وجاء في مسنن الإمام أحمد عن النبي ﷺ : « أَحَبُّ
الخلق إلى الله إمام عادل وأبغضهم إليه إمام جائر » .

وتروي لنا كتب التاريخ حادثة بطلها أيضاً الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه . وهي تدل على تأصل روح العدل والمساواة في المجتمع الإسلامي وتبين المساواة بين الذمي والمسلم في دولة الإسلام . فقد تسابق ابن لعمرو بن العاص ، والي مصر ، مع قبطي (مسيحي) ، حتى إذا قارب القبطي الفوز ضربه ابن عمرو بسوطه وقال له متباهاً بأبيه وأمه :

(١) سورة المائدة ، الآية : ٨.

(والقسط : يعني العدل . ولا يجرمنكم : أي لا يحملنكم . شتان :
بغض).

(٢) سورة الأنعام ، الآية : ١٥٢.

« أتُسْبِّقُنِي وَأَنَا ابْنُ الْأَكْرَمِينَ ؟ » .

تأثُّر القبطي كثيراً من هذه الإهانة ، وكان قد سمع بالعدل الذي يطبقه أمير المؤمنين على جميع المواطنين فذهب إلى عمر في المدينة يشكو إليه ما فعل ابن واليها . فكتب عمر إلى واليه أن يوافيه ومعه ابنه . فلما مثلا بين يديه أوقف القبطي معهما وتحقق من الحادثة ، ولما ثبتت التهمة على ابن الوالي أعطى عمر أوامره بأن يضرب القبطي ابن الوالي عمرو بن العاص كما ضربه ، وأطلق كلمته المشهورة التي ما زالت تتوارثها الأجيال ، تكتبها بحروف من نور : « متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراضاً » .

والأمر بالعدل يقابله النهي عن الظلم الذي ينعدم في المجتمع الإسلامي ، يقول جل شأنه في محكم قرآنـه : ﴿ وَبَشَّرَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ ﴾^(١) . . . ﴿ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾^(٢) .

والأمر بالعدل يشمل أفراد الأسرة الواحدة وأفراد المجتمع كله ، كما يشمل النهي عن الظلم جميع أنواع الظلم . فهم ذلك المسلمون فعرفوا حقوقهم وواجباتهم ، وربما تمادوا في طلب

(١) سورة آل عمران ، الآية : ١٥١ .

(٢) سورة إبراهيم ، الآية : ٢٢ .

العدل ، حتى أن رجلاً يدعى ذو الخوبصرة التميمي وقف يوم حنين على رسول الله ﷺ وهو يعطي الناس فقال :

- يا محمد قد رأيْتُ ما صنعتَ في هذا اليوم .

- فقال الرسول ﷺ : أجل فكيف رأيْتَ ؟

- فقال : لم أرَكَ عدلتَ .

فغضب الرسول ثم قال : ويحك إذا لم يكن العدل عندي فعند من يكون ؟^(١) .

ويوم حنين أيضاً عتب الأنصار لأن الرسول أعطى قومه من الفيء وزاد في إكرامهم . فدخل عليه سعد بن عبادة فقال : إن هذا الحي من الأنصار قد وجدوا (حقدوا) عليك في هذا الفيء الذي أصبت . قسمت في قومك وأعطيت عطايا عظاماً في قبائل العرب ، ولم يك في هذا الحي من الأنصار منها شيء .

فلم يثر الرسول ، ولم يغضب ، فالأنصار يطالعون بحقهم ، وكان عليه أن يوضح الأمر لهم ، فجمع الأنصار وخطب فيهم وقال ما معناه : أغضبتم مني لأنني أعطيت قوماً لِيُسلِّمُوا ، ووكلتكم إلى إسلامكم . ألا ترضون يا معاشر الأنصار أن يذهب

(١) سيرة ابن هشام الجزء ٢ ، الصفحة ٤٩٦ .

الناس بالشاة والبعير وترجعوا برسول الله إلى رحالكم .. ؟

وقد يكون في هذا القول ما يدل على أن الرسول لم يعدل فعلاً بالقسمة ، فأعطى حديثي الإسلام ليستمبلهم اعتماداً منه على عمق إيمان الأنصار ، فلم يمنع ذلك الانصار - وهم لا يعلمون مقصده - من المطالبة بالعدل ، وممن ؟ من رسول الله أعدل الناس وكان على الرسول أن يبرر عمله . فالمسلم لا يرضى بالظلم ، وإلا فقد صفة الإيمان : « إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيما كنتم قالوا كنا مستضعفين في الأرض ، قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ، فأولئك مأواهم جهنم ، وساءت مصيراً »^(١) .

وقف عمر بن الخطاب يوماً يخطب على المنبر فقال : « أيها الناس اسمعوا وأطيعوا ». فما كان من أحد المسلمين الحاضرين إلا أن قال : « لا سمعاً ولا طاعة يا عمر ». فسأله عمر ببساطة : لماذا ؟ فقال الرجل ما معناه : إن حصته من القماش التي وزعت لم تكفيه لخياطة ثوب ، وهو قصير بين الرجال . بينما يرتدي عمر ثوباً فضفاضاً وهو طويل بين الرجال . فطلب عمر من ابنه أن يقف ويشرح الأمر على مسمع من الناس ، وأن يبين لهم كيف استطاع الخليفة عمر أن يخيط ثوباً كاملاً من قماشه .

(١) سورة النساء ، الآية : ٩٧ .

فتبيّن أن ابن عمر تبرع لأبيه بحصته من القماش لكي يستطيع الخليفة الظهور بثوب كامل بين الناس . . . عندها قال المسلم : « الآن سمعاً وطاعة » .

٤ - مجتمع العزة والكرامة

بفضل الحرية والعدل والمساواة السائدة في المجتمع الإسلامي ، يحسّ المسلم دائمًا بعزّة النفس وأن له ما للآخرين وعليه ما على الآخرين . وبالإضافة إلى ذلك فإن الله سبحانه وتعالى قد كرم المؤمن بقوله :

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لِيُسْتَخْلِفُنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ، يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ، وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾^(١) .

ولأن الإنسان في المجتمع الإسلامي عزيز النفس ، فإنه يرفض أن يذله أحد ، أو يسْرِقَه أحد ، أو يهضم حقوقه أحد ، أو يمنعه حريته أحد . فإن حاول أحد ذلك فله أن يقاوم ، وإن

(١) سورة النور ، الآية : ٥٥

قتل فهو شهيد ، والحياة الآخرة خير وأبقى . إنه يشعر بأن لا أحد يفوقه مكانةً مهما علا مركزه في الدنيا ، فالفضل بالتقوى فقط ، وذلك (أي مقدار التقوى) شيء يقرره الله ، وهو ميسور لكل مجتهد .

ولا طبقات في المجتمع الإسلامي دنيوية كانت أم دينية . إن المسلم ينادي ربه مباشرة دون واسطة ، فيطلب منه ويتضرع إليه . وإن أخطأ يتوب إليه ، ويسأله المغفرة دون واسطة أو شفيع .

والإنسان في المجتمع الإسلامي يعرف مكانته ، ولا يفترط في حقوقه ، حتى لا يحول نفسه من العبودية لله إلى العبودية للبشر أمثاله ، فالمرء حيث يضع نفسه . أما الله عز وجل :

فقد حدد للمؤمنين مكانتهم بقوله : ﴿ ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ﴾^(١) .

وكي يكون الإنسان عزيزاً لا بد أن يكون متحرراً من الخوف بكل أشكاله وأنواعه .

(١) سورة المنافقين ، الآية : ٨ .

وهكذا المسلم في المجتمع الإسلامي . فهو متحرر من خوف العدو لأنه لا يخاف الموت ، فإن قتل فهو شهيد فاز بالآخرة . وإن انتصر فقد فاز بالدنيا والآخرة .

وهو متحرر من خوف الحاكم لأن الحاكم المسلم لا يظلم أحداً في رعيته ، ولو كان له كارهاً . كيف يظلم وهو يعلم أن النار مثوى الظالمين ، وأن العدل بين الناس أفضل القربات إلى الله عز وجل . وهو متحرر من خوف الفقر لأنه مؤمن بأن الله مقسم للأرزاق ، ولأن نظام « التكافل الاجتماعي » في الإسلام يضمن له ولأسرته حياة عزيزة كريمة ، لا حرمان فيها ولا حاجة .

ولا تعني العزة التكبر ولكنها تعني الاعتزاز بالإسلام ، والإسلام يأمر المسلم بأن يكون براً بأهله يعفو عن أخطائهم ويتجاوز عن سيئاتهم . وأن يكون حسن العشر كثير الصفح عن إخوته في الإسلام . فالMuslim أخو المسلم ، والمسلمون سواسية كأسنان المشط ، لا يجوز للمسلم التعالي على أخيه أو الإساءة إليه أو منافسته إلا في عمل الخير وطاعة الله .

٥ - الشورى والديمقراطية

لقد بين الإسلام في موضوع الحكم بشكل قاطع أن الحكم لا يورث ، جاء ذلك في قول الله عز وجل ﴿إِذَا

إبراهيم ربه بكلمات فاتّمَهن ، قال [أَيُّ اللَّهُ عَزَّ وَجْلَ] : إِنِّي جاعلك للناس إماماً ، قال [إِبْرَاهِيمٌ] وَمَنْ ذُرِّيَّتِي : قال [اللَّهُ سَبَّحَانَهُ] : لَا يَنالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴿١﴾ .

فإن كان الحاكم لا يستطيع أن يصل إلى مركز السلطة بالوراثة فكيف يمكنه ذلك ؟ لقد حدد الإسلام ذلك فقال الله عز وجل : ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ ﴾ ﴿٢﴾ .

أما كيف تتم هذه الشورى ؟ فذلك أمر يعود إلى البشر تنظيمه ، فالطريقة أمر ثانوي ، والمهم هو الجوهر . وللمجتمع عند اختيار الحاكم أن يطبق الوسيلة التي تتناسب مع عدده ، وطبيعة حياته ، ومستوى اتصالاته ، وسعة الأرض التي يقطن عليها ، وكافة العوامل المادية والمعنوية التي تؤثر على وسيلة الاختيار ، شريطة أن لا تخرج هذه الوسيلة عن مبدأ الشورى ، في الاختيار ، ولا يخرج الحاكم عن الشريعة في الحكم . وفي ذلك من الديمقراطيات أكثر مما يدعى الديمقراطيون . ومن هنا نستنتج أن المجتمع الإسلامي ليس بحاجة لاستيراد مبدأ الحكم من هذه الدولة أو تلك ، فعنه مبدأ الشورى الذي يضمن مشاركة كافة المسلمين (أو مندوبيهم) في اتخاذ القرارات ،

(١) سورة البقرة ، الآية : ١٢٤ .

(٢) سورة الشورى ، الآية : ٣٨ .

ويمنع وبالتالي التسلط والفردية ، ويجعل الحكم ممثلاً لأفراد المجتمع جمياً وصالحهم . ولدينا في صدر الإسلام خير مثال على هذا المجتمع المثالى .

ولم تكن الشورى في الإسلام وليدة الحاجة ، بل هي أحد الأسس التي قام عليها الدين الإسلامي . فلقد خاطب الله عز وجل رسوله بصيغة الأمر : ﴿ وشاورهم في الأمر ﴾^(١) . وطبق الرسول هذا المبدأ في الكثير من الأمور التي كانت تعترضه . ولعل أشهرها استشارته أصحابه فيما يفعل بأسرى بدر ، واستشارته لهم يوم أحد في موضوع الخروج من المدينة لملاقاة المشركين خارجها .

ثم طبق الخلفاء الراشدون مبدأ الشورى في اختيار الحاكم وتسيير الأمور بعد وفاة الرسول ﷺ ، ابتداء من اجتماعهم في السقيفة على أثر وفاة الرسول لانتخاب خلف له ، إلى أواخر حياة كل منهم ، كما يظهر لكل من يتتبع كتب التاريخ والسير .

ولا بد لنا هنا من أن نذكر بأن للشورى في المجتمع الإسلامي ضابط لا يمكن تجاوزه ، وهو تطابق الرأي الذي

(١) سورة آل عمران : الآية ١٥٩ .

يجمع عليه المسلمون مع الشريعة .

وللمجتمع أن يضع الضوابط التي تتلاءم مع وضعه لتقرير صحة أي اجتهاد أو قانون شرعاً . فقد يكون ذلك مثلاً عن طريق مجلس شورى من كبار العلماء أو غير ذلك .

٦ - العمل والانتاج والتعاون

المجتمع الإسلامي مجتمع العمل والانتاج . ولقد أمر الله تعالى المسلمين بالعمل والسعى في تحصيل الرزق ، وحذر من القعود والكسل . ولم يسمح بالانقطاع للعبادة فقط والتوقف عن العمل ، بل ربط بين العمل والعبادة . ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِي لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعُوا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذِرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ . إِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةِ فَانشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ ، وَادْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾^(١) . وعن النبي ﷺ انه قال : « مَا أَكَلَ أَحَدٌ قَطْ طَعَامًا قَطْ خَيْرًا مِنْ أَنَّهُ يَأْكُلَ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ »^(٢) .

ولتحقيق ازدهار المجتمع وتحسين شروط العمل ، أكد الإسلام على مبدأ التعاون داخل المجتمع ، حتى يساعد

(١) سورة الجمعة ، الآياتان ٩ و ١٠ .

(٢) رواه البخاري في كتاب البيوع .

المسلمون بعضهم بعضاً ، ويعملون معاً لبناء مجتمع مزدهر قوي قادر على الصمود أمام التحديات ، ولا يدخلون في منافسات عقيمة تعطل العمل وتعرقل الانتاج ، وتضعف وبالتالي قدرة المسلمين على مواجهة أعدائهم .

قال تعالى : ﴿ وتعاونوا على البر والتقوى ، ولا تعاونوا على الإثم والعدوان ﴾^(١) .

وقال : ﴿ واعتصموا بحبل الله جمِيعاً ولا تفرقوا ﴾^(٢) .
﴿ ولا تنازعوا فتفسلوا وتذهب ريحكم ﴾^(٣) .

٧ - العلم

أكَدَ الإسلام على أهمية العلم في دفع مسيرة التقدم . ونزلت أول آية على الرسول ﷺ تأمر بالقراءة ﴿ إقرأ باسم رب الذي خلق ﴾^(٤) . والقراءة مدخل إلى العلم والمعرفة . وبفضل المعرفة يتحول المرء من مجرد إنسان يعيش إلى إنسان مؤدي لرسالة يحيى ويفهم ويتفاعل ويبعد .

(١) سورة المائدة ، الآية : ٢ .

(٢) سورة آل عمران ، الآية : ١٠٣ .

(٣) سورة الأنفال ، الآية : ٤٦ .

(٤) سورة العلق ، الآية : ١ .

يقول الله عز وجل : «وقل رب زدني علماً» ^(١) ؛
ويقول في آية أخرى «يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا
العلم درجات» ^(٢) .

وكذلك حثّ الرسول ﷺ على طلب العلم فقال : «طلب
العلم فريضة على كل مسلم و المسلم» ^(٣) . ونتيجة للأمر بالعلم
والترغيب فيه ظهر في المجتمع الإسلامي علماء في كافة فروع
العلوم النظرية والتطبيقية ، وأضافوا إلى التراث الإنساني ذخيرة
كبيرة من المعارف . ثم تناقص اهتمام المسلمين بالعلوم في
عصور الانحطاط حتى سبّقتهم شعوب أخرى ، وسيطرت عليهم
مادياً وفكرياً بسبب تقدمها العلمي . ولا غرو إذا قلنا إن العلم هو
أهم أسلحة التحرير في معركة الأمة الإسلامية ضد أعدائها ،
وإن عودة المجتمع المسلم إلى الاهتمام بالعلم ، ستساعد
المسلمين على التخلص من الغزوـة الثقافية التي تهددهـم ،
وتومن لهم في الوقت نفسه القدرة على صد الغزوـة المادية التي
لا تزال مستمرة ضـدـهم حتىـاليـوم ، وتسـمـحـلـهـمـ بـبنـاءـ مجـتمـعـ
أفضل .

(١) سورة طه ، الآية : ١١٤ .

(٢) سورة المجادلة ، الآية : ١١ .

(٣) رواه ابن ماجه في سننه .

٨ - الاعتدال

لقد أباح الاسلام للمؤمن الاستمتاع بتمتع الحياة المشروعة ﴿ قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطبيات من الرزق ؟ قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيمة ﴾^(١) . إلا أنه حذر المؤمنين من المبالغة في الإفراط ﴿ ولا تجعل يدك مغولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً ﴾^(٢) . إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين ، وكان الشيطان لربه كفوراً^(٣) .

والحكمة في إباحة الاستمتاع بتمتع الحياة هي أن يشعر المؤمن بلذة الحياة وفوائد العمل . فيقدم على العمل المتاج بهمة ونشاط . أما الحكمة في التحذير من الإفراط فهي أن الغلو في الاستمتاع بتمتع الحياة الدنيا ، يؤدي إلى نتيجتين مدمرتين للمجتمع :

أولاًهما: الانزلاق نحو ارتكاب الفواحش والموبقات من قبل الأفراد . والثانية: انقسام المجتمع إلى متربفين ومحروميين ، الأمر الذي ينجم عنه صراعات حادة تهدم المجتمع من جذوره .

(١) سورة الأعراف ، الآية : ٣٢ .

(٢) سورة الاسراء ، الآية : ٢٩ .

(٣) سورة الاسراء : الآية ٢٧ .

ولا يستطيع المسلم الاستمتاع بالحياة دون غلو أو إفراط إلا إذا كان معتدلاً في كل شيء (المال ، الجاه ، السلطة ، الملذات غير المحرمة . الخ) . ومن اعتدال المسلمين يتشكل المجتمع الإسلامي المعتدل المتوازن الذي لا يتعرض للهزات والنكبات والتفسخات الداخلية ، بل يبقى متماساً من الداخل قوياً تجاه الخارج .

٩ - مجتمع مقاتل من أجل السلام

يتصف المجتمع الإسلامي بأنه مجتمع يحمل رسالة ويحاول نقلها إلى الآخرين والدفاع عنها ضد المعتدين . وهو من هذه الزاوية مركز إشعاع ، ونقطة انطلاق للتغيير على مستوى العالم كله . لذا فان أعداء المبادئ السامية التي يحملها الإسلام يعتبرون المجتمع الإسلامي وما يحمله من قوة فاعلة للتغيير خطراً كبيراً على وجودهم ، ويعملون بالتالي لضرب هذا المجتمع أو إيقاف امتداد أفكاره .

وهم يصورون هذا المجتمع غولاً سيقضي على الحضارة ، وهو في الواقع منبع الحضارة ، هو سيقضي على الجشع والاستغلال والاستعباد ، وسيؤمن الحرية والتحرر لجميع البشر ما استطاع إلى ذلك سبيلاً . والحروب الإسلامية أكبر دليل على ذلك فهي لم تكن في يوم من الأيام حروب

استعباد أو استعمار أو استغلال . لقد كانت حروبًا دفاعية أو وقائية او فتوح تحرير . لم يكرهوا أحداً على اعتناق دينهم ، ولم يظلموا أحداً خالف عقيدتهم . شعارهم في ذلك : « الخلق كلهم عيال الله ، وأحبهم إليه أنفعهم لعياله »^(١) والناس كلمة عامة شاملة تستوعب المسلمين وغير المسلمين .

١٠ - مجتمع موحد

المجتمع الإسلامي كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً ، وكالجسد الواحد ، إذا اشتكت منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى . ولا يمكن أن يكون المجتمع الإسلامي مقسمًا مفرقًا ، تتنازعه الأهواء وتفرقه المذاهب والتعارضات ، كما هي حال المسلمين في هذه الأيام وإنما فقد صفة « الإسلامية » .

ومما يؤسف له أن الانقسام في صفوف المسلمين بدأ سياسياً ، عندما بُويع الإمام علي بالخلافة ورفض والي دمشق ، في تلك الأيام ، معاوية بن أبي سفيان مبايعته ، فانقسم المسلمون بين مشايخ لعلي ومؤيد لمعاوية . . . ومع مرور الزمن ترسخ الانقسام السياسي ، وتحول إلى انقسام مذهبي

(١) ضعيف الجامع الصغير رقم ٢٩٤٥ عن البزار عن أنس .

عقائدي ، عمقه الجراح وغذّته الحروب ، فتبلورت الفكرة الشيعية ، في مقابل السنة . ثم أصبح الشيعة شيئاً ، والسنة مذاهباً .

وتسرّب الأعداء وانحرفت بعض الفرق وخرجت من الإسلام . . .

والى يوم فإن المجتمع الإسلامي أكثر ما يكون حاجة إلى الوحدة ، ولا يخفى على كل ذي بصيرة الجهود التي يبذلها أعداء المسلمين لإيقاع الفرقة والتناحر في صفوف المسلمين . وهذا ما يفرض على المسلمين وقفة واعية تترك الماضي للتاريخ وتتطلع إلى بناء مستقبل أفضل .

فالمسلمون كلهم شيعة إذا كان التشيع يعني أحقيّة علي بالخلافة من معاوية . والمسلمون كلهم سنة إذا كانت السنة تعني السير على سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

أما الفِرق التي تتهم بالخروج من الإسلام فهي قسمان :
قسم يقول نحن غير مسلمين ، وهؤلاء اختاروا أنفسهم
ويجب أن ينظر إليهم على هذا الأساس ويعاملوا كغيرهم من
الأديان وحسب الشريعة الإسلامية .

وقسم يقولون : نحن مسلمون ، وهؤلاء يجب اعتبارهم
مسلمين ، ومعاملتهم على هذا الأساس حتى ولو كان داخلهم غير

ذلك . فللناس الظواهر والله يتولى السرائر : ويمكن أن يكون منهم المسلمون حقاً . وأما مخادعوهم فهم أولى بهذه النظرة من المنافقين الذي قال الله فيهم : ﴿ ألم تر الى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمرموا أن يكفروا به ، ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيداً . وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً . فكيف إذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم ثم جاؤوك يحلفون بالله إن أردنا إلا إحساناً وتوفيقاً . أولئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم فأعرض عنهم ويعظهم وقل لهم في أنفسهم قولًا بليغاً ﴾^(١) .

أمر الله واضح في هذا النفر من الناس ، لقد أمر رسوله أن يعرض عنهم ويعظمهم ويقول لهم قولًا بليغاً ، ولم يأمره بالتشنيع عليهم ، ولا بقتلهم أو بنفيهم ، وهذا لا ينفي معاقبة الذين يتصرفون منهم تصرفاً مخالفًا للإسلام أو يجاهرون بعادتهم للعقيدة الإسلامية . ويجب أن لا يغيب عن بالنا دائمًا ما ذكرناه آنفًا ، أن الخلق ، جميع الخلق ، عيال الله ! وأحبهم إليه أنفعهم لعياله .

(١) سورة النساء ، الآيات : ٦٠ - ٦٣ .

خاتمة

قد يتسائل بعض القراء ، بعدما ينتهي من قراءة صفحات هذا الكتاب ، عن أسباب تخلف المسلمين وتقدم غيرهم من الشعوب والأمم ، التخلف الذي لا ينكره إلا مكابر أو مغافر ، والذي يعزوه بلهاء المسلمين ، وأعداؤهم ، على السواء ، إلى الإسلام نفسه .

ومن كان له بعض اطلاع على تاريخ الشعوب العربية والإسلامية ، سيسترجع في ذاكرته ما قرأه عن أمجاد المسلمين الغابرة ، ويغلق عينيه على صورة جميلة للمجتمع الإسلامي بمثله وأخلاقه وعدالته . فإذا فتحهما انهمرت من عينيه دموع حرى على حالة المجتمعات الإسلامية وما يسود فيها من أمور يخجل الإنسان من وصفها أو تسطيرها في كتاب ... والعقل المتحرر سيسأله نفسه « أين الخطأ ؟ » ، وما هي أسباب الانحطاط ؟

في اعتقادي أن الخطأ يكمن في مفهومنا للدين ، الذي يحكم جميع تصرفاتنا .

فقد تغيرت مفاهيمنا وانحرفت لأسباب كثيرة تحتاج إلى شرح طويل . . . ، مما أدى إلى ضياع المسلمين بين متذمّر متزمت يريد أن يفرض على عقول المسلمين حَجْراً ، فلا يرون إلا من زاوية واحدة وإلى مدى محدود . . وبين مدَعٍ للتحرر ، منحرف يريد أن يجرّ الشعوب العربية والإسلامية من ذاتيتها وعقيدتها ، ويلحقها بذيل إحدى الحضارات البراقة السائدة .

من المسؤول عن هذا التخلف؟ هل هم القادة والزعماء؟ أم هم «رجال الدين» والعلماء؟ أم . . . الإنصاف يقتضي أن نجيّب بصراحة : كلنا مسؤولون ، كل حسب مكانته ومعرفته ، وعلى قدر ما أعطاه الله وهيأه له . وربما كان علماء المسلمين وملوكهم مسؤولين أكثر من غيرهم . . . وهم مدعون اليوم ليقدموا الدين في ثوب جديد ، يحافظ على روح الدين وجوهره ، ويتلاءم في عرضه وتطبيقه مع روح العصر ومقتضياته . وأن لا يكونوا رحماء بالكافار أو متباھلين لهم ، خوفاً ورهبة ، أشداء فيما بينهم ، يکفر بعضهم بعضاً بدون مبرر ، ويحارب بعضهم بعضاً لأنّه الأسباب . . .

وفي الختام أسأل الله عز وجل أن يكون هذا الكتاب خطوة لإثارة التساؤلات ، وتحرير العقول ، وفتح باب النقاش الجدي ، لتلمس الطريق الصحيح ، عسى أن تعود لهذه الأمة كرامتها ، وتعود لممارسة دورها الريادي بين أمم الأرض .

محتوى الكتاب

الصفحة	الموضوع
٥	الإهداء
٧	الفصل الأول : أين الله ؟
٩	مقدمة
١٠	شغلو عقولكم
١٢	التقدمية والرجعية
١٤	الديمقراطية
١٧	الاشتراكية
٢٢	حيادي من الغيب
٢٤	الطريق الى الله
٣٠	الله واحد
٣٣	الفصل الثاني : النبوة
٣٧	نبوة محمد
٤٧	الفصل الثالث : ما هو الإسلام ؟
٤٩	تمهيد
٥٥	أركان الإسلام

٥٦	الركن الأول : الشهادتان
٥٩	العبادة
٦٠	الركن الثاني : الصلاة
٦٢	الركن الثالث : الزكاة
٦٦	ميزات نظام الزكاة
٦٨	الركن الرابع : الصوم
٧١	الركن الخامس : الحج
٧٧	الفصل الرابع : المجتمع في ظل الاسلام
٨٠	١ - الحرية
٨١	٢ - المساواة
٨٣	٣ - العدل
٨٨	٤ - مجتمع العزة والكرامة
٩٠	٥ - الشورى والديمقراطية
٩٣	٦ - العمل والانتاج والتعاون
٩٤	٧ - العلم
٩٦	٨ - الاعتدال
٩٧	٩ - مجتمع مقاتل من أجل السلام
٩٨	١٠ - مجتمع موحد
١٠١	خاتمة